التعريفات
والأهداف والفوائد

المبحث الأول
التعريفات

المطلب الأول: التعريف اللغوى وما يتصل به من مفاهيم حول النفس والروح

القضية التى نحن بصدد توضيحها تتكون من ثلاث كلمات:

علم ونفس ودعوة، حيث إن الأولى منها تعريفها معلوم لدى الأوساط العلمية، وهى لشهرتها معروفة عند من هم دونهم، والأخيرة قد عرفناها فى كثير من كتبنا السابقة لهذا الكتاب[1]، ولهذا سوف نقصر التعريف اللغوى على الكلمة الوسيطة (نفس) للمركب، أما عند التعريف الاصطلاحى فسوف يكون التعريف للمركب كاملا حيث هو المعنى هنا من هذا الكتاب.

ورد لكلمة (نفس) فى اللغة العربية كثير من المعانى، بعضها له صلة بموضوعنا، وهو الحديث عن النفس الإنسانية التى تكون شخصية الإنسان وتؤثر فى سلوكه، والبعض الآخر يبتعد عن موضوعنا، وسوف نذكر هنا بعضا من هذا وذاك لمجرد المقارنة ومعرفة الثروة اللغوية وزيادتها[2].

(١) انظر على سبيل المثال لتعريف كلمة دعوة. كتابنا: منهج تقديم الدعوة.

(٢) للمعانى اللغوية التى سقناها انظر: لسان العرب، مادة (النفس) ٦/ ٤٥٠٠.

١ ـ النفس: تعنى الروح، يقال خرجت نفسه، أى روحه.

٢ ـ النفس: تعنى ما يكون به التمييز (اليقظة) وهنا أيضا تأتى بمعنى الروح، جاء فى معنى النفس والروح شعرا قوله:

نجا سالم والنفس منه بشدقه ولم ينج إلا جفن سيف ومئزرا[١]

٣ ـ النفس: تعنى الروع والنية، يقال: فى نفس فلان أن يفعل كذا أى فى نيته وروعه.

٤ ـ ومن معانى النفس الذات والقوة العاقلة.

٥ ـ ومن معانيها، العزة والكرامة والكبرياء والهمة... الخ.

٦ ـ ومن معانى النفس اللغوية ـ التى لها علاقة بموضوعنا ـ الدم حيث جرى بعض العلماء على تفسير اللغويين لها بهذا المعنى ونسب النفس للدم، وعلل ذلك قائلا: وأما النفس ـ الدم ـ فشاهده قول السموءل:

تسيل على حد الظبات نفوسنا وليست على غير الظبات تسيل[٢]

كما استعملَ الدَّمَ بمعنى النفس الفقهاءُ، فيقال: لا ينجس ما لا نفس له سائلة، أى ما لادم له، واستشهدوا ببيت السموءل السابق. وإنما سمى الدم نفسا لأن النفس تخرج بخروجه[٣] ونص على هذا المعنى للنفس بعض الأطباء المعاصرين الذين سوف نعرض لرأى بعضهم لاحقا ـ إن شاء الله ـ عند الحديث حول مادية النفس والروح وماهيتهما.

ومن معانى النفس الأخرى: الغيب، والعين التى تصيب الإنسان من إنسان آخر، فيقال: أصابته نفس، أي: عين، والمعانى الأخيرة تبعد عن موضوعنا شيئا ما.

(١ و ٢) البيت الأول من شعر حذيفة بن أنس الهذلى، والبيت الثانى للسموءل.

(٣) لسان العرب لابن منظور، مادة (النفس) ٦/ ٤٥٠٠.

بعض معانى النفس فى القرآن الكريم:

وردت النفس فى القرآن الكريم فى كثير من الآيات بمعان مختلفة، ولا غرو فى ذلك؛ حيث إن منزل القرآن هو خالق النفس وما هى عليه، فحديث القرآن عنها هو حديث الحقيقة التى ما بعدها حقيقة، وبما أنه سوف تكون لنا جولات طويلة ـ خلال هذا الكتاب ـ مع القرآن الكريم، فسوف نقتصر على بعض معانى النفس فى القرآن؛ وذلك لكثرتها، ولأننا سوف نطرقها مرارا فى حديثنا ومعالجتنا للنفس.

١ ـ النفس بمعنى الإنسان، أى الشخصية البشرية بكامل هيئتها.

وهى الإنسان بكامل دمه ولحمه وشخصيته، وهذا كثير وغالب فى القرآن. فمن ذلك الآيات التالية: قال الله تعالى ـ مخاطبا الناس عامة وبنى إسرائيل خاصة بأن يحذروا يوم الحساب ويعملوا صالحا، وأن الإنسان يأتى ربه فى ذلك اليوم فردا، ولا تنفعه شفاعة الشافعين: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ... ﴾[2].

فالمقصود بالنفس هنا المخلوق كله وانتقال وجوده من دار الدنيا.

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ... ﴾[3].

٢ ـ النفس بمعنى الروح.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[4].

---

(١) سورة البقرة ـ الآية (٤٨).
(٢) سورة آل عمران ـ من الآية (١٤٥).
(٣) سورة الأنعام ـ من الآية (٩٨).
(٤) سورة الزمر ـ الآية (٤٢).

وقال تعالى عن الكافرين وأموالهم وثرواتهم وكيف أن الله يريد أن يعذبهم بها فى الدنيا بجمعها ورعايتها والنَّصب عليها، وكذا يعذبهم بها فى الآخرة، ثم بعد كل هذا العناء عليها يموتون على الكفر، فلم يتسفيدوا منها لا فى الدنيا ولا فى الآخرة...)[1]: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[2]. وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ .. ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ ... ﴾[4].

٣ ـ النفس بمعنى الغرض أو الهوى أو الحاجة والرغبة فى الشىء... الخ.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[5].

قال تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[6].

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ ... ﴾[7].

كانت تلك مجرد أمثلة، وتعتبر لاشىء بالنسبة لمعانى النفس فى القرآن، كما أن الآيات التى ذكرنا أنها تدل على معنى بعينه لا يعنى أنها لا تحتمل معنى آخر غير ما ذكرنا، بل الآية القرآنية الواحدة قد تحمل عددا كبيرا من

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبى ٨/ ١٠٤ ط١، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
(٢) سورة التوبة ـ الآية (٥٥).
(٣) سورة آل عمران ـ من الآية (١٤٥).
(٤) سورة آل عمران ـ من الآية (١٨٥).
(٥) سورة يوسف ـ الآية (٥٣).
(٦) سورة المائدة ـ الآية (٣٠).
(٧) سورة يوسف ـ من الآية (٦٨).

المعانى، وكل إنسان يفهم منها بحسب ما أعطاه الله من علم؛ ذلك لأن القرآن يحوى ويجمع بعمومه كل ما خلق الله سواء عرفنا ذلك أم لم نعرف، وطرق ذلك كثيرة: منها العموم، والإيجاز والحذف، والإشارة البعيدة، والإجمال، والطى، بل ومنه سؤال أهل الاختصاص، أو بتعبير القرآن: أهل الذكر، كما قال، تعالى: ﴿ ...فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1]. وقال، تعالى: ﴿ ... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ... ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ ... مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ... ﴾[3].

من معانى الروح فى القرآن الكريم:

إن كل من يتناول النفس لابد أن يتطرق إلى الروح لتلازمهما، بل ربما تطابقا، فهما كيان إنسانى أو هما كيان يتعلق بكل حى، ولا يعرف كنههما على الحقيقة غير الذى خلقهما، فلنتناول طرفاً يسيراً من معانى الروح فى القرآن:

وردت للروح فى القرآن معان كثيرة ومتباينة، منها:

١ ـ الروح التى بها الحياة وترادف معنى النفس.

قال الله تعالى فى قصة اليهود الذين سألوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الروح: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[4].

هذا هو المعنى الذى عليه أكثر العلماء لمعنى الروح هنا، وإن كان لبعض المفسرين آراء أخرى، ولكنها ليست قوية، وقال الله تعالى عن خلق آدم

---

(١) سورة الأنبياء ـ من الآية (٧).
(٢) سورة النحل ـ الآية (٨٩).
(٣) سورة الأنعام ـ الآية (٣٨).
(٤) سورة الإسراء ـ الآية (٨٥).

ونفخ الروح ـ أى الحياة ـ فيه وإسجاد الملائكة له: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[1].

يقول القرطبى معلقا على الآية: (النفخ إجراء الريح فى الشىء، والروح جسم لطيف أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة فى البدن مع ذلك الجسم، وحقيقته إضافة خلق إلى خالق، فالروح خلق من خلقه أضافه إلى نفسه تشريفا وتكريما...)[2].

٢ ـ تأتى كلمة الروح بمعنى المَلَك جبريل، عليه السلام، قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ ... ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ... ﴾[4].

٣ ـ الروح بمعنى القرآن الكريم:

من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ ... ﴾[5].

وجاء بمعنى القرآن أو الوحى عامة قوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾[6].

٤ ـ وقد تأتى كلمة الروح بمعنى التأييد والنصر بالقوة والمنعة والحجة والبرهان، أو الإيمان والهدى كما فى قوله تعالى: ﴿ ... أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ... ﴾[7].

---

(١) سورة الحجر ـ الآية (٢٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبى ١٠/ ٢٤.

(٣) سورة الشعراء ـ الآية (١٩٣) وصدر الآية (١٩٤).

(٤) سورة النحل ـ الآية (١٠٢).

(٥) سورة الشورى ـ من الآية (٥٢).

(٦) سورة النحل ـ الآية (٢).

(٧) سورة المجادلة ـ من الآية (٢٢).

وكثير من تلك المعانى للروح تلتقى مع معانى النفس من قريب أو من بعيد. . .

المطلب الثانى: العلاقة بين النفس والروح والجسد:

أما من حيث العلاقة بين الثلاثة، فلا ينكر أحد أنها علاقة ترابط وتلازم، ولايَقُوم أَحَدُ الثلاثة دونَ الآخر، بل ولا يُؤَدِّى أحَدُهَا دوره المنوط به إلا مع وجود العناصر الثلاثة وتلازمها وتعاضدها. .

وأما من حيث المعنى والماهية، وهل كل عنصر من العناصر الثلاثة مستقل بذاته وقائم بنفسه ولا يعتمد على الآخر ـ فهذا أمر لا يمكن القطع به، ولاسيما من حيث المعنى بين الروح والنفس.

والقدر المتفق عليه بين الباحثين فى هذا المجال قديما وحديثا، هو أن الجسد لا يصلح بدون الاثنين معا، الروح والنفس، وليس له قيام ولا فوائد بدونهما، ولكن الجدل محتدم فى العلاقة بين الروح والنفس وما هما؟ وهل يفنيان ويموتان أو يبقيان بعد مفارقتهما للجسد ـ الذى اتفقوا على عدم بقائه ـ ؟ وهل يفنى أحدهما ـ على فرض اختلافهما ـ ويبقى الآخر؟.

أولا وقبل كل شىء نقول: هل من وراء البحث فى مثل هذه الأمور وبهذه الكيفية من فائدة تذكر، سواء دنيوية أم أخروية؟ والإجابة طبعاً لايمكن أن تكون بالنفى الكامل أو بالإيجاب الكامل؛ ذلك لأن العنصرين لهما علاقة بالإنسان، وهما مذكوران فى النصوص الشرعية، والعقل البشرى يتوق لمعرفة ما له علاقة به، ولا سيما إذا كانت تلك العلاقة مصيرية بالنسبة له، ولا يكون بقاؤه إلا بها، ولكن ينبغى أن يكون البحث فى حدود المعقول الذى يمكن أن يعود على الباحث بفائدة وفى الحدود التى يدركها العقل البشرى، وليس وراء ذلك من فوائد للبحث إن تخطى ما ذكرنا؛ ولهذا سوف نعالج الموضوع على ضوء هذه القاعدة ولا نتعداها.

إن النفس والروح من أمور الغيب بالرغم من وجودهما فينا، وكل أمر غيبى لا يقع تحت حسنا وإدراكنا المباشر، له طريق واحد للدخول إلى البحث فيه، وهو طريق الوحى، سواء أكان قرآنا أو سنة، ومن خلالهما نستطيع الاستبصار فى كل أمر غيبى على ضوء معطيات نصوصهما وبمقدار فهمنا لتلك النصوص، وعلى مدى مبلغ علمنا لهما، نحصل على قدر من المعرفة الغيبية، وما عدا ذلك فإن وسائل البحث فيما وراء الحس تصبح ضرباً من الخيال الذى لا يأتى بحقيقة، ولكن على ضوء النصوص الشرعية التى تملك زمام الغيب نستطيع أن ندرك بعضا من ذلك.

والناظر إلى تلك النصوص يجد أن ثمة علاقة وثيقة وحميمة بين الروح والنفس، ويجد الحديث عنهما فى تلازم وتناغم؛ فلم يرد ـ لا فى القرآن ولا فى السنة ـ أن الروح شىء والنفس شىء آخر ـ حسب علمى ـ والدليل على ذلك أننا نجد الحديث عنهما متناوباً ومتناسقا لا ينم عن فرق، بل يتخلص من السنة أنهما شىء واحد، أو أن عملهما يكمل بعضه بعضا، وإن كان الحديث عن الروح يميل فى كثير من الأحيان إلى أنها هى التى تكون بها الحياة، وهى التى تُتَوَفَّى وتُرْفَع، وإن ورد هذا المعنى للنفس أيضا ـ كما سنذكر إن شاء الله ـ ولكنه يكون فى جانب الروح أكثر ورودا وبروزا.

دلالة التلازم بينهما

من الأدلة البارزة على التلازم بين النفس والروح: ذلك السؤال الذى سأله المشركون ـ عن طريق اليهود ـ لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، عن الروح، والوجه فيه هو أنهم سألوه عن الروح فقط، وسكتوا ولم يسألوه عن النفس، ولو كانوا يعتبرون فرقا بينهما لسألوه أيضا عن النفس؛ لأن غرضهم التعجيز، ولا سيما أن النفس والروح من أمور الغيب، فكونهم يكتفون بالسؤال عن الروح فقط ـ يدل على تلازمهما، كما أن الجواب الذى جاء من عند الله كان مكتفيا بالروح فقط، ولم يتطرق للنفس؛ سَدّاً لذريعة سؤال الرسول، صلى الله عليه وسلم، عنها مرة أخرى، فلو أن بينهما تبايناً

لأجاب القرآن عن ذلك منعا للفتنة، أو لعكس عليهم السؤال وسألهم عن النفس على سبيل التحدى والإعجاز، مثلما سألهم أن يأتوا بعشر سور وبسورة وغير ذلك من أسئلة التعجيز لهم والنصرة لنبيه.

البرهان الثانى على تلازمهما: ما ورد فى القرآن الكريم من الحديث عنهما بصورة لا يفهم منها الاختلاف، كما فى قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ ... ﴾[1].

وكذا قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ... ﴾[3].

وورد عن الروح ما يلى:

قول الله تعالى عن خلق آدم وإحيائه بنفخ الروح فى جسده: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[4].

فالناظر للآيات التى ذكرتْ النفس والتى ذكرت الروح لا يجد فرقا يذكر، حيث إن النفس تقبض وتموت، وكذلك تنفخ فى الجسد الهامد فتدب فيه الحياة والحركة...

فإذا نظرنا فى السنة النبوية، كذلك، وجدنا الأمر واضحا وبينا فى تلازم وتعانق الروح والنفس، ولا نلاحظ أى فرق - فيما نعلم - والله أعلم، فإلى بعض الأحاديث الدالة على ذلك:

---

(١) سورة الزمر - من الآية (٤٢).
(٢) سورة التوبة - الآية (٥٥).
(٣) سورة آل عمران - من الآية (١٤٥).
(٤) سورة الحجر - الآية (٢٩).

عن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ قالت: دخل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على أبى سلمة وقد شق بصره فأغمضه، ثم قال: (إن الروح إذا قبض تبعه البصر)[1].

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (ألم تروا الإنسان اذا مات شخص بصره. . . قال: فذلك حين يتبع بصره نَفْسَه)[2].

ففى الحديث الأول كان الكلام عن الروح وأنه إذا قبض تبعه البصر، وفى الحديث الثانى ـ الذى ربما حدَّث به النبى، صلى الله عليه وسلم، فى مكان آخر ووقت آخر وسمعه رَاوٍ آخر ـ ذكر أن الإنسان إذا مات تبع بصره نفسه، فهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعتبر النفس والروح لا فرق بينهما، حيث عبر عنهما فى الحديثين بعبارتين هما: النفس مرة، والروح مرة أخرى، ولو كان ثم فرق ما تبادل التعبير باللفظين للمعنى الواحد. والله أعلم.

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى صلى الله عليه وسلم، قال: (إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب، اخرجى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان. فلا يزال يقال ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء. . .)[3].

وجاء عنه، صلى الله عليه وسلم: (إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدانها)[4].

ففى الحديث الأول أن التى تخرج وتصعد هى النفس الطيبة، وفى الثانى

---

(١) صحيح مسلم ـ كتاب الجنائز ـ حديث.
(٢) صحيح مسلم ـ كتاب الجنائز ـ حديث.
(٣) مسند الإمام أحمد ٢/ ٣٦٤ و ٦/ ١٤٠.
(٤) مسلم ـ كتاب الجنة ـ حديث رقم (٧٥).

ذكر أنها الروح تصعد. فهذا التبادل فى الألفاظ للمعنى الواحد يدل على عدم الفرق بينهما.

والدليل الأخير على تلازم الروح والنفس وأنهما كذلك فى الهدى النبوى هو حديث الوادى الذى نام فيه المسلمون وقد وكَّل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بلالا ليكلأ لهم الفجر، فإذا طلع أيقظهم، فنام بلال بعد طول سهر، ولم يتيقظوا إلا على حر الشمس فقال بلال عندما سأله الرسول، صلى الله عليه وسلم: لِمَ لَمْ يوقظهم؟ (.. أخذ بنفسى الذى أخذ بنفسك...)[1].

وروى زيد بن أسلم فى نفس الحديث أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال فى رده على قول بلال موجها حديثه للمسلمين:

(يأيها الناس، إن الله قبض أرواحنا، ولو شاء ردها إلينا فى حين غير هذا)[2].

ووجه الدلالة أن بلالا ذكر للرسول، صلى الله عليه وسلم، أن الله أخذ بنفسه مثلما أخذ بأنفسهم، وكان جواب النبى، صلى الله عليه وسلم، عليه وموجها ذلك للمسلمين، أن الله قبض أرواحنا، فرد بالروح على قول بلال بالنفس، فهذا بَيِّن الدلالة على ذلك التناغم بينهما، والرسول، صلى الله عليه وسلم، يقول بقبض الأرواح أو توفيها فى النوم، وهو يعلم قول الله، تعالى، فى هذا المقام:

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ... ﴾[3]،

(١) سنن ابن ماجه ـ كتاب الصلاة (١٠) باب (٢) من نام عن الصلاة ١/ ٢٢٧. والموطأ ـ كتاب الوقوت ـ باب النوم عن الصلاة ١/ ١٣.

(٢) الموطأ ـ كتاب وقوت الصلاة ـ حديث (٢٦) ١/ ١٤ طبع دار الكتاب المصرى (بدون تاريخ).

(٣) سورة الزمر ـ من الآية (٤٢).

فتعبير الرسول، صلى الله عليه وسلم، بأن التى يقبضها الله ويرسلها إلى أجل هى الروح ـ مع علمه بأن الآية تذكر النفس ـ يدل على ما ذهبنا، والعلم عند الله، وإنما نحن نبحث ونفسر ونستنتج على ضوء فهمنا للنصوص، ومع ذلك فنحن معرضون للخطأ دائماً، نسأل الله الثواب على العمل والمغفرة عند الزلل.

آراء العلماء فى الفرق بين النفس والروح

أما أقوال العلماء فى الفرق بين النفس والروح، فقد تباينت واختلفت: فمنهم من جعلهما شيئاً واحداً، ومنهم من فرق بينهما، وهذا ملخص لبعض تلك الآراء:

فالقرطبى، صاحب التفسير المشهور، رأى عدم التفريق بينهما، وأنهما شىء واحد وانتصر لرأيه بعدد من الشواهد ذكرها فى كتابه (التذكر) وذكر طرفاً منها فى تفسيره فقال: (وقد اختلف الناس فى هذه الآية فى النفس والروخ، هل هما شىء واحد أو شيئان... والأظهر أنهما شىء واحد، وهو الذى تدل عليه الآثار الصحاح...)[1].

أما أبو حامد الغزالى، فقد طرق الموضوع طرقاً فلسفياً ـ كعادته فى كثير من مباحثه ـ فمرة فرق بينهما، ومرة جعلهما شيئاً واحداً.

فأما التفريق فيفهم من خلال حديثه عنهما وتقسيمه لهما كُلٌّ على حِدَة، وأنه جعل الروح فى تجويف القلب، وجعل النفس قوة الغضب والشهوة فى الإنسان، وقال: هذا استعمال أهل التصوف لها!!

وأما فى حالة الجمع بينهما، فقد ذكر أن كلاً من النفس والروح (اللطيفة) الربانية العالمة المدركة من الإنسان، وهى حقيقة الإنسان...)[2].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبى، ٥/ ٢٦١.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين ٣/ ٤ طبع دار إحياء التراث ـ بيروت ـ لبنان (بدون تاريخ).

وبهذا المعنى الأخير فقد جمع بينهما، فيما يفهم من سياقه وسرده، وسوف نزيد كلامه إيضاحاً عند حديثنا عن ماهية النفس والروح لاحقاً، إن شاء الله، تعالى.

ولقد أكثر ابن حجر من النقول فى الفتح، لكبار العلماء عن معنى الروح، ولم يذكر المقارنة بينها وبين النفس إلا قليلا، وكان يميل إلى السكوت والإضراب عن الخوض فى ذلك؛ ولهذا قال: (وقد تَنَطَّعَ قَومٌ فتباينت أقوالهم، فقيل: هى النَّفَس الداخل والخارج، وقيل: الحياة.. وقال ابن العربى: اختلفوا فى النفَّس والروح، فقيل: متغايران، وهو الحق، وقيل هما شىء واحد، قال: وقد يعبر بالروح عن النفس، وبالعكس كما يعبر عن الروح وعن النفس بالقلب، وبالعكس...)[1].

أما أحد المعاصرين، وهو الدكتور عابد توفيق الهاشمى الأستاذ المشارك فى علم النفس، فقد اضطرب رأيه حول النفس والروح، فمرة يقول: (هما اسمان مترادفان لمعنى واحد، ويقول مرة أخرى: وتطلق النفس على الروح وحدها...

ويقول أخرى: إلا أن الروح لا تطلق على البدن ولا على النفس، فالروح التى تتوفى وتقبض هى النفس، وهى واحدة غير متعددة، وإن تعددت صفاتها، فتسمى باعتبار كل صفة باسم..[2].

وَحُقَّ له ولغيره أن يفعل ذلك؛ لأن الروح مما استأثر الله بعلمه الإحاطى، وذلك بصريح القرآن: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[3].

(١) انظر فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر ٨/ ٤٠٣ طبع دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان.
(٢) انظر: مدخل إلى التصور الإسلامى للإنسان والحياة، ص ٢٥ للدكتور عابد توفيق الهاشمى، نشر دار الفرقان، عمان ـ الأردن ط ١ (١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م).
(٣) سورة الإسراء ـ الآية (٨٥).

المطلب الثالث: النفس والروح، بين المادية والجوهرية

لما كان أمر النفس والروح يكتنفه الغموض بالنسبة لمعرفة الإنسان، فقد تباينت حول ذلك المفهوم وجهات النظر، وغدا كل باحث يدلى بحسب ما آتاه الله من علم ومعرفة، وحق لهم أن يقعلوا ذلك؛ لأن الروح والنفس، قد استأثر الله بعلمهما الدقيق وكنههما الأصيل، ولم يعط البشر من ذلك إلا العلم القليل الذى يدورون حوله، وهم فيه يتفاوتون، والسبب هو أن الروح من أمر الله ومن خصائصه الغيبية التى لا يدرك ماهيتها وحقيقتها إلا هو.

فالناس يلفُّون ويدورون حول العلم القليل الذى وهبهم إياه خالق الروح حول معرفة شىء عن النفس والروح وغيرهما.

ومع ذلك فقد حاول العقل البشرى أن يتعرف على النفس والروح، ولو من قبيل الْخَرْصِ والْحَزْر (أى التخمين).

هل النفس والروح، من الماديات المحسوسة أم هما من غير الماديات؟ وهل إحداهما مادية والأخرى غير مادية؟.

فبعضهم جعل الروح من مشتقات المادة اللغوية (روح) وقال: الرُّوحُ والريحُ والرَّوْحُ من أصل واحد اكتنفته معان تقاربت، فبنى لكل معنى اسم من ذلك الأصل... فالروح، روح الأجسام الذى يقبضه الله عند الممات...[1].

فهو يجعلها من المعانى غير المادية وإن اشتركت فى الأصل مع بعض الماديات مثل الريح والريحان، ولكنها أقرب إلى الروحانيات.

وابن منظور ومعه كثير من اللغويين يرون أن الروح والنفس شىء واحد،

---

(١) تأويل مشكل القرآن، عبدالله بن مسلم بن قتيبة المروزى، ص ٤٨٨، طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان، ط ٣ (١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م).

وهما ـ لا سيما الروح ـ ليسا من قبيل الماديات وإن جاء عندهم أحد معانى النفس بالدم، ولكنهم لا يقولون ذلك عندما يتحدثون عن الروح فى الغالب، فهو يقول:

والروح، النفس، يذكر ويؤنث، والجمع الأرواح، قال أبو بكر بن الأنبارى: الروح والنفس واحد، غير أن الروح مذكر، والنفس مؤنث عند العرب... والروح إنما هو النَّفَس الذى تنفسه الإنسان، وهو جار فى جميع الجسد، فإذا خرج لم يتنفس بعد خروجه...[1].

أما القرطبى، فقد جعل النفس والروح اسمين لمسمى واحد، اعتبر أن الروح جسم لطيف، وبالتالى فهو مادى مَثَلُهُ مَثَلُ بقية المخلوقات، ويفهم من سياقه أن الدلالة المادية تتناول الاثنين معا: النفس والروح، فيقول:

والصحيح فيه ـ أى المركب من النفس والروح ـ أنه جسم لطيف مشابك للأجسام المحسوسة يُجذب ويُخرج، وفى أكفانه يلف ويُدرج، وبه إلى السماء يُعرج، لا يموت ولا يفنى، وهو ما له أول وليس له آخر... وأنه ذو ريح طيبة وخبيثة، كما فى حديث أبى هريرة[2] وهذه صفة الأجسام لا صفة الأعراض...[3].

فالقرطبى يرى أنهما من الأجسام المحسوسة بحسب الأدلة التى ذكرها،

---

(١) لسان العرب لابن منظور، مادة (روح) ٣/١٧٦٧، طبع دار المعارف ـ بيروت.

(٢) الحديث الذى أشار إليه حديث طويل، رواه مسلم فى كتاب الجنة رقم ٧٥ ـ وأحمد فى المسند ٤/٢٨٧. وإليك مواضع الاستشهاد منه: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال على الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء. فيقول ملك الموت: أيتها النفس الطيبة، اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان، فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فِى السِّقَاء. ويخرج بها كأطيب نفحة مسك. فلا يمرون على ملأ من الملائكة حتى قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ قال: والعبد الكافر ـ يجيئه ـ ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجى إلى سخط من الله، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة، فتقول الملائكة: ما هذا الروح الخبيث؟...

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبى، ١٥/٢٦٢.

بالرغم من أنه يرى عدم الخوض فى ماهية الروح؛ لأنها من أمر الله، ومع ذلك حاول ـ على ضوء النصوص ـ فهم ذلك.

وهذا دأب علماء السلف الأوائل: فقد كانوا يحاولون ويفسرون ويعللون ويستنتجون ويستنبطون ويشحذون أذهانهم على ضوء النصوص وما أعطاهم الله من عقل وفهم، ولا يقفون جامدين متحجرى الفكر، مما جعلهم يُثْرُون المكتبة الإسلامية بذخائر نادرة مازال المسلمون يجترونها إلا القليل ممن فتح الله عليه باب الاجتهاد والتجديد والنظر إلى مستجدات العصر ومتغيرات الزمن فأعمل فكره، ولكنه لم يسلم من سهام المتحجرين!!

أما أبو حامد الغزالى، فقد قسم كلاً من الروح والنفس إلى قسمين أو بتعبيره هو إلى معنيين: أحدهما ـ فى كل من الروح والنفس ـ مادى والآخر روحانى أو روحى أو غير محسوس ولا مُدْرَك، وساوى بين المعنيين فى عدم المحسوسية، فقال عن الروح بالمعنى المادى: إنها جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسمانى، فينشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن... وهى الدم الأسود الذى فى تجويف القلب...!!

وشبه فيضان الروح بفيضان النورمن السراج على الحيطان. فالروح عنده مثل السراج، والحياة مثل النور السارى والساطع منه... وقال: إن الأطباء إذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا منه هذا المعنى... ويصف الروح: بأنه بخار أنضجته حرارة القلب!! ولعله يعنى بهذا أن الروح بالمعنى المادى هى الدم؛ لأن هذا المعنى هو الذى ذهب إليه عدد من الأطباء كما سنذكر لاحقا ـ إن شاء الله.

وعن النفس من الناحية المادية يذكر الغزالى، أنها: المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الإنسان. وهذا هو الاستعمال الغالب لها عند أهل التصوف. وهو المعنى الجامع للصفات المذمومة عندهم...

وأما المعنى غير المادى للروح، وكذا للنفس عند الغزالى، فهو أن الروح هى: اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان، كما يذكر أن هذا أحد معانى القلب وأن القلب والروح يشتركان فى هذا المعنى. وعن النفس بهذا المعنى هى: حقيقة الإنسان وذاته وهى تطابق معنى الروح والقلب فى ذلك ـ عنده ـ تمام المطابقة...

ويذكر أن هذه النفس لها أحوال عديدة توصف بها حسب كل حالة، وما يلابسها، فهى إذا دافعت الشهوات، تسمى اللوامة، وإذا سكنت، تسمى المطمئنة، وإذا داخلها الشيطان سميت، الأمارة بالسوء...[1].

أما ابن حجر فيظهر أنه يميل إلى أن الروح ليس من قبيل الماديات، وإن كان من الحوادث المخلوقة، ويورد افتراضات ينقلها عن فخر الدين الرازى حول سؤال اليهود للرسول، صلى الله عليه وسلم، عن الروح ويقول: إن جوابه، يدل على أنها شىء موجود مغاير للطبائع والأخلاط وتركيبها، فهو ـ أى الروح ـ جوهر بسيط مجرد لا يحدث إلا بمحدث، وهو قوله، تعالى: (كُنْ)..

ولكنه نقل عن ناس لم يسمهم بأنهم تنطعوا وقالوا: هو النَّفَس الداخل والخارج... وقيل: جسم لطيف يحل فى جميع البدن، وقيل: هى الدم، وقيل: هى عرض... قال: واختلف هل تفنى عند فناء العالم قبل البعث أو تستمر باقية؟ على قولين، والله أعلم...[2].

وكلام ابن حجر الأخير الذى لم يرجح فيه أحد الجوانب، يدل على أنه يعتبرها من صنف الماديات؛ لما ذكره من أقوال عن جسميتها وأنها دم.. الخ ولكن لم يقل أى الأقوال يتولاه ويرجحه.

---

(١) انظر: لما تقدم من المنقول عن الغزالى: كتابه إحياء علوم الدين، ٣/ ٣ وما بعدها...

(٢) انظر: فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر ٨/ ٤٠٢ وما بعدها.

ولقد ذكر بعض الأطباء النفسانيين من المعاصرين أن النفس هى الدم، وجزم بذلك وأن الروح مكانها فى القلب، وأن النفْس التى هى الدم تنقل الروح إلى كل خلية من خلايا البدن، فتبعث فيها الحياة!! ويقول: إن الروح هى العقل المفكر وآلته الدماغ الإنسانى، ويدافع بأن النفس ليست الروح؛ لأن ـ عنده ـ أن النفس هى الدم فقط!! والروح عنصر حيوى مفكر، وعن طريقه تكون كل الانفعالات والتفاعلات الحيوية والدماغية فى الإنسان... ويميل إلى أن الروح جوهر وليست مادة عكس النفس، وهى تتفاعل تفاعلا حميما مع العقل والنفس التى مصدر جميع الانفعالات والظواهر النفسية وما يتبعها من انعكاسات عضوية..[1].

وتفسيره للنفس عضوى (بيولوجى) خالص، وهو من صميم تخصصه، وهو فى هذا يسلك مسلك علماء النفس من أصحاب المدارس التجريبية وطرقها المختلفة، مثل (السايكولوجية) الوظيفية التجريبية، ومثل الطريقة (الفسيولوجية) وطريقة الشروط المتنوعة...[2] وكلها تعتمد التجريب على النفس الإنسانية!! سالكين فى ذلك مسلك علماء الأحياء وغيرها من العلوم التجريبية.

ذلك ملخص لما يتعلق بالنفس والروح من حيث التعريف اللغوى وما يتصل به من مفاهيم حول الروح والنفس، وسوف نعالج فى الفقرة الثانية التعريف الاصطلاحى لعنوان الكتاب.

المطلب الرابع: التعريف الاصطلاحى:

إن أصعب شىء فى البحوث العلمية أن يجد الباحث نفسه وحيدا فريدا

---

(١) لما تقدم انظر: من علم النفس القرآنى، د/ عدنان الشريف، طبع دار العلم للملايين ـ ط١ (١٩٨٧) ص ٤٠ وما بعدها.

(٢) انظر: مدارس علم النفس، د/ فاخر عاقل ص ٢٩، طبع دار العلم للملايين ـ بيروت ـ لبنان، ط ٦، (١٩٨٣م).

فى الميدان الذى يطرقه أو على الأقل فى المادة أو المفهوم المعرفى الذى يبحث فيه، حيث يلزمه أن يبحث عن قواعد متينة ليشيد عليها البناء الأولى، وأن تكون قاعدة الأساس متينة عميقة؛ حتى تحتمل ما يمكن أن يشاد عليها من بنايات فوقية، هذا إذا تفادينا المخاطر التى ربما يقع فيها المؤسس، والتخبطات التى يصاب بها، والعثرات التى ربما صَدَعت البنيان من أساسه أو ربما ضلل الكثيرين الذين يأتون من بعده، ولكنه على كل حال هو مأجور ما صلحت وخلصت النية وبُذل الوسع وأُفرغ الجهد، فهو مع إحدى الحسنيين: إما الأجر الواحد فى حالة عدم الإصابة، أو حصول الأجرين إن كانت الأخرى.

ولقد بذلت جهدى أن أجد من الباحثين من كتب عن موضوعى هذا (علم نفس الدعوة) ولكن محاولاتى للعثور على شىء من ذلك باءت بالخسران، ولا حتى فى أسطر من كتاب لم أجد شيئا البتة!! لا من قريب ولا من بعيد، إلا شيئاً لم يقع تحت يدى. ومتى وجدت من سبقنى فسوف أثبت له حقه.

ولهذا فقد حزمت أمرى، وعقدت عزمى على خوض غمار المعركة منفردا إلا من معية الله ـ تعالى ـ وهى أكبر عون للعبد.

وكل علم أو فن لابد له من تعريف يحد أطرافه، ويجمع شتاته، ويهتدى على أثره من جاء ليبحث فى ذلك العلم.

وبعد البحث والتدقيق فى العناصر التى تتكون منها مادة علم نفس الدعوة، وبعد النظر فى الأهداف والغايات المقصودة لهذا العلم أو الفن، وما يرمى إليه وما يسعى لتحقيقه... بعد كل ذلك توصلت إلى التعريف التالى، فظهر لى أن علم نفس الدعوة هو:

الدراسة العلمية لنفسية المدعوين وسلوكهم، للتعرف على أمثل الطرق والوسائل لدعوتهم إلى الحق أو الاستزادة منه.

وحسب وجهة نظرى المتواضعة أن هذا التعريف ينطبق على المعرف تماما، وهو جامع مانع للمعرف، نؤيد ذلك بالاستنتاج التالى:

قولنا: (الدراسة) هذا عنصر لابد منه؛ لأن كل بحث علمى لا يقوم على الدراسة فهو قاصر، ولن يؤدى إلى نتيجة، فلابد إذن من الدراسة.

وكذا كلمة (العلمية) حيث إن كل أمر لايقوم على علم، وكل دراسة لا تستند إلى العلم فهى خبط عشواء تصيب من غير تمييز.

وكونها ـ أى الدراسة ـ لنفسية المدعوين وسلوكهم، فإن كلا من النفس والسلوك عنصران رئيسان فى التكوين البشرى، وفيما يخص علاقة الإنسان بنفسه وبغيره، كما أنهما المميزان البارزان لشخصية الإنسان وكينونة الجماعة، وعلى هذا فلابد من دراسة علمية عملية للنفس والسلوك، كما أن كلا من النفس والسلوك يؤثر فى الآخر، فالعوامل النفسية تنعكس على السلوك الخارجى، وتظهر فى كل تصرفات الفرد والجماعة، كما أن السلوك الخارجى بدوره يتسبب فى تكوين وغرس العوامل النفسية الداخلية والتى هى بدورها تجلب أو تظهر سلوكا خارجيا آخر، فالعملية ـ إذنْ ـ متبادلة تبادلا عكسيا بين الاثنين..

هذه الدراسة، بتلك الكيفية التى ذكرناها مختصرة، تؤدى إلى التعرف على أمثل الطرق والوسائل والأساليب التى على ضوئها يقوم الداعية بإيصال ما يريد إيصاله للمدعو...

أما قولنا فى التعريف: (لدعوتهم إلى الحق أو الاستزاد منه)، فإن غرض الداعى هو إيصال المدعوين إلى الحق الذى ينشده كل عاقل ويسعى إليه كل حصيف، وهو الذى قامت عليه السماوات والأرض وما بينهما، وهو سبب السعادة إلى البشر إن أبصروا طريقه.

أما إذا كان المدعوون يعرفون الحق أو بعضا منه، فإن مهمة الدعاة تثبيت

الحق وتوطيده فى النفوس فإن للحق جوانب كثيرة، وله طرقا متعددة، وهو ذو شعب وأفانين. وإن كان هو فى النهاية واحداً فإن معانيه ووسائله وسبله وأهدافه وغاياته متعددة، وهذا ما كان يقر عليه الرسول، صلى الله عليه وسلم، الصحابة عند اختلافهم فى بعض الأمور مثلما أقرهم فى الصلاة فى بنى قريظة حيث أقر من صلى دونهم فصلى العصر فى وقته، وأقر من صلى بعد وصوله إليهم وبعد غروب الشمس، كما يظهر فى صدق النيات وإفراغ الوسع فى الاجتهاد، وإن لم يصب عين الحق، حيث كان للمجتهد المصيب أجران، ولغير المصيب أجر...

وبهذا نعتبر أن هذا التعريف أدى الأمر المبتغى منه، هو أن يعرف القارئ لهذا الكتاب ـ إجمالاً ـ ما المقصود بعلم نفس الدعوة.

موضوع علم نفس الدعوة

لكل علم أو فن موضوع يعتنى به ويبحث فيه ويدور حوله، وإلا كان عبثا، والعبث باطل، والباطل يُجتنب، فضلا عن أن يُدْرس ويُنفَق فيه الوقت والجهد، فلو طرحنا سؤالاً نقول فيه: لماذا يَدرس الداعى هذا العلم، علم نفس الدعوة؟ نقول يدرسه ليتعرف على:

١ ـ سلوكيات المدعوين ونفسياتهم.

٢ ـ آرائهم ووجهات نظرهم.

٣ ـ معتقداتهم وأفكارهم.

٤ ـ العوامل التى تؤثر عليهم سلبا وإيجابا.

٥ ـ البيئة التى يعيشون فيها من النواحى المناخية، والتاريخية والاجتماعية والسياسية لمعرفة الخلفيات التى تؤثر على النفس. ولماذا هذا التعريف؟

١ ـ إن كانوا على خير زادهم، وإن كانوا على غير ذلك أرشدهم للصواب.

٢ ـ التعرف يفيد الداعى كيفية الإرشاد بالطريق الصحيح السليم.

المبحث الثاني
الأهداف والفوائد

لابد لكل علم من أهداف ينبغى الوصول إليها بدراسته، وغايات يرنو إلى الانتهاء عندها وحط رحاله فى كنفها، وعلم نفس الدعوة ـ على حداثته ـ من أهم العلوم الإسلامية التى تعنى بالإنسان ليكون إنسانا يؤدى المهمة التى خلقه الله من أجلها ويقوم بها خير قيام؛ ليسعد هو وليرضى ربه، بل وليكون إنسانا يستحق الإنسانية، ويستحق التكريم الذى منحه إياه خالقه وفضله على كل مخلوقاته: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[1].

إن من أهداف علم نفس الدعوة الارتقاء بالإنسان، وهذا الارتقاء يتمثل فى عدة نواح نجملها فى المطالب التالية:

المطلب الأول: الارتقاء بالإنسان من حيث السلوك العام

إن سلوك الإنسان يتمثل ويظهر فى أمور عديدة، بعضها متعلق به تعلقا عضويا، والبعض الآخر يتمثل فى هندامه ولباسه، وبعضها فى مركبه... نجمل ذلك فيما يلى:

---

(١) سورة الإسراء ـ الآية (٧٠).

أولا: القوام:

لقد منح الله ـ تعالى ـ الإنسان خلقة وهيئة لم يمنحها غيره من مخلوقاته ـ على كثرتها وعظمتها ـ بالنسبة للإنسان، فهو بالنسبة للمخلوقات ـ من حيث كثرتها وتنوعها ـ كقطرة فى بحر لُجِّىٍّ، ولكنه مميز عليها تمييزا بينا واضحا، بل هى مستخدمة له ومسخرة.

فإن الإنسان لو تدبر فى كيفية صنعه وهيئته من حيث القوام والشكل العام لم يخالف لخالقه أمرا، ولعظم له قدرا وأعلى له ذكرا، ولكن الإنسان كفور ـ إلا من رحم ربى ـ وفى ذلك بتلك الكيفية تكريم له أيما تكريم، فهو لم يُخلق وهو يمشى على أربع مكبا على وجهه، ولم يسترخ ذيله ويستطل قرنه ولم يُكس جسمه الشعر والوبر، بل جُعل يمشى على رجلين مستويا مستقيما، وجُعلت عيناه فى مقدمة وجهه، ولم تجعلا على الجانبين!

وفى هذا كله دلالة على خلجات نفسه وإشارة إلى سلوكه وتعامله مع غيره من بنى جنسه ومن مخلوقات الله الأخرى..

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾[2].

نعم، لو شاء الله لركبك ـ أيها الإنسان ـ فى صورة غير هذه، وليس لك ـ عندئذ ـ أن تقول: لم؟ وكيف؟ لأنك حينئذ لست قادرا ولا متصورا لغير ما جُبلت عليه!!

ولهذا فقد كانت الفطرة والجبلة الأصيلة هى الإيمان بالله خالقا لهذا

---

(١) سورة التين ـ الآية (٤).

(٢) سورة الانفطار ـ الآيات (٦ ـ ٨).

الكون وقادرا ومدبرا وحكيما ورازقا، ولكن صوارف الدهر وعاديات الزمان تُحوِّران الإنسان وتغيرانه ويوسوس له الشيطان بالكفر فيغويه:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ...﴾[1].

(إن خلق الإنسان على هذه الصورة الجميلة السوية المعتدلة، الكاملة الشكل والوظيفة أمر يستحق التدبر الطويل، والشكر العميق، والأدب الجم، والحب لربه الكريم، الذى أكرمه بهذه الخلقة، تفضلا ورعاية منه، فقد كان قادرا أن يركبه فى أى صورة أخرى يشاؤها، فاختار له هذه الصورة السوية الجميلة...

إن الإنسان لمخلوق جميل التكوين، سوى الخلقة، معتدل التصميم، وإن عجائب الإبداع فى خلقه لأضخم من إدراكه هو، وأعجب من كل ما يراه حوله...

وإن الجمال والسواء والاعتدال لتبدو فى تكوينه الجسدى، وفى تكوينه العقلى، وفى تكوينه الروحى، وهى تتناسق فى كيانه فى جمال واستواء..)[2].

إن خلق الإنسان لبديع ورائع حقا، وهو مدهش لكل العقول، ومحير لكل الألباب، وإن له دلالات وإيحاءات قوية ومعينة على كيانه الداخلى النفسى والروحى والخلقى، بل والسلوك الظاهرى...

وكل شىء فى تركيب الإنسان وتسويته وتعديله آية قائمة بذاتها، وذات

---

(١) سورة الأعراف ـ من الآية (١٧٢).

(٢) فى ظلال القرآن، لسيد قطب، ٣٨٤٨/٦، طبع دار الشروق ـ بيروت ـ لبنان (١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦م).

دلالة ظاهرة على تفرده فى الخَلْق والخُلُق، فلو أخذنا عضوا واحدا من أعضائه، بل ولو جزءا من العضو لهالنا أمره الذى لم يخلق مثل خلقه..

فلو نظرنا وفحصنا اليد الإنسانية سنجدها ـ ومن النظرة العامة ـ ذات رونق وجمال ومميزة بعدد من المميزات لم تتوافر فى أى مخلوق آخر غير الإنسان بما لها من صفات عديدة واستخدامات شتى تمدها بخصائص متفردة، كلها تعين الإنسان على ما يريد، وتخدمه فى أنواع شتى من الحرف والصناعات والمعارف والعلوم.

فهى مرنة ومبسطة وبدون تكاليف، ولا تحتاج إلى إضافات تضاف إليها، وبها منظفاتها ومطهراتها الخاصة، وبها حصونها وأجهزة دفاعها وحرسها، بما فى ذلك أجهزة الإنذار المبكر ودفاعات الطوارئ والدفاعات المستمرة الدائمة...

ومن الناحية السطحية نجدها تتكون من:

خمس أصابع تتفاوت فى طولها وحجمها حسب المهام التى تناط بكل واحدة منها، وبحسب ما يقتضيه التناسق المفيد لقضاء الحوائج، وكذا التناسق الجمالى. والأصابع مركبة على قاعدة محكمة البنيان متسقة النظام، وهى الكف، (المفلطح) المقعر... وتوجد فى أعلى الكف أربع أصابع، وفى الجانب الأسفل منها واحدة أسمك وأقصر، ولكنها على درجة قصوى من الأهمية.

وتحمى الأصابع وتتزين ـ فى آن واحد ـ فى الجهة العليا من رءوسها بالأظافر المكونة من غضروف قوى لامع جميل المنظر، والمفاصل المتعددة تساعد الأصابع واليدين عامة على الانقباض والانبساط بسهولة ويسر، مما يجعل الاستفادة منهما كبيرة للغاية لا تضارعها أى آلة أخرى من صنع الإنسان، فسبحان الله الخالق المبدع الصانع القدير!!

﴿ ... صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ... ﴾[1].

إن الإنسان بيده التى هى من عجائب صنع الله، قد أسس الحضارات، وشاد المدنيات، وبرع فى هندستها، وتفنن ـ بيده ـ فى إعمارها وتجميلها، وإنه لمن المستحيل أن تبتكر آلة تضارع اليد البشرية فى التناسق والمرونة وسهولة الحركة ويسر الاستعمال مع الإتقان...

(ولقد درس فريق من الباحثين الحركات التى تقوم بها اليدان، فوجد أن عددها يقرب من الألف، فأى آلة تستطيع أن تفعل ذلك؟)[2].

بل نقول: إن اليدين يمكنهما القيام بما لا نهاية له من الحركات؛ حيث إن العمل غير متناه وغير محصى، ذلك كله بما وهبهما ومنحهما الله من القدرات المتنوعة الفائقة كل قدرة آلية.

إن الآلة الحديثة بكل مخترعاتها وتقنياتها لايمكن أن تجعل البشر يستغنى عن استخدام يديه، بل من العمل ما لايمكن معه استخدام أى آلة خلا اليد، فإن العمليات الجراحية الدقيقة فى أجزاء الجسم تستلزم استعمال اليدين وتدخلهما، ولا توجد آلة تتوافر فيها مرونة اليد وإحساسها.

واليد أكثر الأعضاء تمييزا للإنسان عن بقية المخلوقات، باستثناء النطق الفصيح والضحك بصوت، فبعض الحيوانات التى لها نوع من الأصابع لايوجد بها إبهام، مثل بعض أنواع القردة، وهذا نقص بيِّنٌ؛ لأن الإصبع ـ الإبهام ـ على أهمية كبيرة فى إعطاء اليد مرونتها وحيويتها وقوة القبض بها وإجراء بعض الأمور الدقيقة.

وإذا كان العقل من خصائص الإنسان، فإن اليدين هما اللتان تنفذان له ما

---

(١) سورة النمل ـ من الآية (٨٨).

(٢) كتاب: جسمك كله عجائب، تأليف فريق من المتخصصين، ص ١٤٥ نشر دار المعارف بتونس (بدون تاريخ).

يأمر به، فهما الجهة التنفيذية، إن صح التعبير، وهو السلطة التى تدفع بالأوامر والنواهى.

إن الجسم الإنسانى يشتمل على نحو خمسة ملايين فلزات استقبال حسية دقيقة، عملها أن تسجل الألم والحرارة والضغط وكثيرا من الأحاسيس الأخرى، منها نحو مليون ونصف المليون، قرابة ثلث المجموعة، موجود فى اليدين، وقد يثير دهشتك أن تعلم أنه يوجد فى اليدين والرسغين سبع وعشرون عظمة؛ ولكى تحرك يداً واحدة تحتاج إلى معونة ثلاثين مفصلا، ومفصلا محوريا وأكثر من خمسين عضلة موجودة فى اليدين والذراعين والكتفين..)[1].

وهذا الحشد من العضلات والأعصاب والمفاصل وأدوات الإحساس يدل على مدى ما تقوم به اليد من جهد جبار ومتنوع لخدمة الإنسان، فسبحان الله المبدع الصانع!!

هذا جزء واحد من تركيب الإنسان وقوامه، وهو جزء يسير للغاية فى هذا القوام الذى أبدعته يد القدرة الإلهية، وهو من الصورة الحسنة التى امتن بها الله على الإنسان فأكرمه، وخصه بها: ﴿ ... وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾[2].

فإذا كان هذا هو القوام الإنسانى فى أبدع صورة وأكملها وأجملها، فى عموم خلق الإنسان، فإننا نجد أنه كلما اختل شرط من شروط هذا القوام الحسن بسبب من الأسباب، فإن ذلك الاختلال يؤثر على سلوك الإنسان وعلى شخصيته على حد سواء.

فإن سلوك ونفسية الأعرج والأقطع أو مجدوع الأنف أو الأعمى أو الأكمه

---

(١) المرجع السابق ص ١٥١.

(٢) سورة التغابن ـ من الآية (٣).

والأبرص وكل أصحاب العاهات، يختلف عن الأسوياء من أصحاب القوام المستقيم، ولعل ذلك الاختلاف بعض الأسباب، التى منها أن نقص تلك الأعضاء والأجهزة يعوقهم عن الاستفادة من بعض معطيات الحياة، ويسبب لهم نقصاً عن بقية أفراد البشر من الأسوياء، وهذا النقص ينعكس على نفسياتهم وسلوكهم فى الحياة، وعلى تعاملهم مع بنى جلدتهم، وبالتالى فهم يحتاجون إلى معاملة خاصة وفهم خاص لتلك النفوس؛ حتى يمكن الاستفادة منهم، وجعلهم أعضاء فاعلين فى المجتمع، وإلا أصبحوا وَبَالاً وخسارة عليه وعالة أيضا.

ولقد حاول المجتمع أن يدفع بهم إلى ما يعدل سلوكهم ويحرر نفسياتهم بتخفيف بعض أسباب النقص الذى يشعرون به، وأن يعزلهم عن بقية البشر، فأنشأ لهم ـ المجتمع ـ المعاهد والمدارس وأدوات التعليم، وصنع لهم ما يعلمهم الحرف والمِهَن التى تدخلهم فى زمرة بنى جنسهم، فخفف ذلك عنهم بعض الشىء، وحَسَّن من سلوكهم.

ونحن نقول: يلزم الدعاة أن يراعوا هذه الجوانب، وأن يستفيدوا منها فى خدمة هذه الشريحة من الناس الذين لحقت بهم هذه النقائص، وأن يشعروهم بعناية الإسلام بهم، وأنهم بشر ككل الناس وأن الله يقبل عمل الصالحين، ويثيبهم عليه وزيادة إن هم صبروا وشكروا ونظروا إلى من هم دونهم ممن ابتلاهم الله.

ولقد كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يجالسهم ويؤانسهم، ويرحب بهم، ويزورهم...

استفاد ذلك من أدب ربه الذى أدبه به، وهى أخلاق القرآن، التى تخلق بها؛ ولهذا قالت السيدة عائشة عندما سئلت عن خُلُقِه: (فإن خُلُق نبى الله، صلى الله عليه وسلم، كان القرآن)[1].

(١) رواه مسلم، فى كتاب المسافرين (١٣٩).

ومن ذلك الأدب عتاب الله له عن واحد من هؤلاء جاءه ليتعلم، وكان مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، نفر من عِلْيَة قريش يحدثهم عن الإسلام، فكان لايريد أن يقطع حديثه معهم، ولكن الأعمى ابن أم مكتوم - رضى الله عنه - أصر على ذلك فوجد النبى، صلى الله عليه وسلم، فى نفسه من ذلك، فعاتبه الله وأدبه بقوله، تعالى:

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾[1].

إن هذا الأمر الذى تعالجه هذه الآيات لا يعتبر حادثا فرديا بالمقياس القرآنى، وإن كان فى الواقع هو فردى، ولكن منهج القرآن، الذى نزل على الرسول، صلى الله عليه وسلم، منجما - حسب الحوادث والوقائع - إنما يأخذ تلك الوقائع كنماذج يقاس عليها ما شابهها وماثلها أو اقترب منها، وهذا ما عبر عنه علماء الأمة بقولهم: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وأما اعتناؤهم بأسباب النزول فهو لمعرفة الحوادث والوقائع للاستفادة منها فى ذلك.

وهكذا فإننا نأخذ من تلك الآيات، فى موضوعنا، عددا من الاستنتاجات التى نستضىء بها فى كيفية معالجة مثل الحادثة المشابهة، فنجد فيها - حسب علمنا - النقاط التالية:

١ - تصنع لنا الآيات الكريمات قاعدة، بل وقواعد، فى كيفية التعامل مع مثل هذا النفر من الناس.

٢ - نجد فيها منهجا متكاملا، وليس حادثا فرديا، وتسوق نموذجا حيا

---

(١) سورة عبس - الآيات (١ - ١١).

وعملا واقعيا شاخصا للعيان، وهذا أفضل أنواع القدوة التى تتمثل وتحتذى وتؤثر فى نفس الإنسان وسلوكه.

٣ ـ أنها تعطى دراسة كاملة للنفسيات البشرية الخاصة التى تفقد إحدى حواسها ومستقبلاتها للحياة الدنيا كابن أم مكتوم الكفيف؛ حيث لم يكن يرى تعابير وجه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولو كان يرى لعرف رد الفعل ولما استمر فى حواره وحثه للرسول، صلى الله عليه وسلم، لكى يعلِّمه، والحال أن القوم معه، ولما عامله الرسول، صلى الله عليه وسلم، بما يرى فيه مصلحة الدعوة ـ حسب بشريته ـ جاءه القانون الذى عن طريقه يعامل مثل هؤلاء، وهى الآيات التى بين أيدينا، ففعل ذلك وأظهره فى أمته، رغم عتابه له، ولكنه نبى وقدوة ما ينبغى له أن يخفى شيئا من أمر الله، تعالى.

فالآيات بينت لنا كيف نتعامل مع مثل هذه الفئات، وكيف ندرس أحوالهم النفسية، وكيف نؤثر فيها، بل وكيف نعدها لتكون رائدة فى المجتمع؟

٤ ـ أن نفسيات كثير من هؤلاء مرهفة الشعور، ومفرطة الإحساس، إنهم ينفجرون لأقل ملابس يلامس علاقاتهم أو يتناول شخصياتهم، ويثورون لأقرب مثير، إننا نحتاج إلى أن نعرف كيف يفسرون الأشياء، وما هى الأشياء التى تمثل انطباعاتهم نحوها؟.

٥ ـ أن النفر والفرد الواحد من هؤلاء قد يصلح حال أمة بأسرها، إن صلح هو؛ وذلك لأن مثل هؤلاء لهم تأثير قوى عند من يخاطبونهم، حيث توحى حالهم بإيحاءات إيجابية للمخاطبين، ويرقون إليها وينجذبون نحوها فى ميل عاطفى بيِّن، والناس يتلقون حديثهم بصورة أكبر من غيرهم، لاسيما إن كانوا على درجة من العلم، ويخافهم العدو أكثر من غيرهم لهذا التأثير الملموس، ولا نذهب بعيدا فأمامنا الآن مثال حى شاهد على ما نقول، فهذا

مُقْعَدُ فلسطين، الشيخ أحمد يس، يقود المسيرة الفلسطينية الإسلامية ويؤجج الانتفاضة، فيزعج إسرائيل، ولا يهدأ لها بال حتى تضعه فى السجن، وهو لا يستطيع أن يمشى على رجليه.

ولهذا فقد أشار القرآن إلى هذا الأثر وهذه الفائدة: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾[1].

٦ ـ تُبرز الآيات ملاحظات قوية وغاية فى الأهمية ذات قواعد، حيث تبرز الدافع النفسى القوى، دافع الإيمان والرغبة فى الإصلاح والنفع والاستفادة، وهذا يؤدى بصاحبه لحمل الدعوة والقيام بها على أحسن وجه. فأما من جاءك يسعى...

يقابله دافع من نوع آخر من ورائه نفس مرتابة هيابة متعالية، تدفع بصاحبها للمعارضة ولو كان المعارض على حق، هذه نفسية مريضة بأدواء متعددة، منها داء الكبر وداء حب الرئاسة، وداء الحسد، وداء الشهوة والرغبة فى تمتع الجسد بالملذات الفاسدة: (أما من استغنى * فأنت له تَصَدَّى).

٧ ـ أننا نجد درجة البيان التوضيحى العالية ذات الصوت القوى الجرىء، لغرس مبدأ الإيمان فى نفوس الدعاة للنهوض بأعباء الدعوةوتحمل تبعاتها ومعرفة ما يصلحها ويصلح لها معرفة متمكنة ودقيقة، قائمة على علم وممارسة عملية، يتمثل ذلك فى الكلمة القوية الفاصلة: (كلا) حيث لا تدع مجالاً لأى شك أو مساومة، بل تحسم الأمر وتضع الحدود...

وخلاصة القول هنا: أن القوام له أثر نفسى وسلوكى كبير، فهو إن كان يتمثل فى الصحة التامة والعضلات القوية والفتوة الزائدة والقوام الممشوق المستقيم والطول الفاره والجسم المنسق... فإن صاحبه يُخْشَى عليه داء

(١) سورة عبس ـ الآيتان (٣ ـ ٤).

الخيلاء والمشى فى الأرض مرحا والعجب بالنفس والتيه، وهذا يسبب كثيرا من المصائب والمتاعب لصاحبه وللمجتمع على حد سواء، وربما عاث فى الأرض فسادا وتجبراً... ومن علاجاته وتطبيبه الذى يَحد من غلوائه أن يعالج بما عالج به لقمان ابنه وأن يسدى إليه النصيحة:

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾[1].

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾[2].

فإذا عرف أن كل ذلك سيئ ومكروه فلعله يرعوى، وكذا إذا رأى من هم دونه أو من ابتلاهم الله بعاهات أو أمراض أو سلبهم نعمة من نعم الأعضاء والحواس، فهذه كلها يلزم الداعى أن يبرزها للعيان، ويوضحها لمن يتعامى عنها؛ لان صاحب النعمة لا يرى نعمته حتى إذا ذُكِّرَ بها أو وقع فى ضدها تنبه.

ثانياً ـ اللباس ودلالاته العامة على السلوك النفسى:

إن اللباس الخارجى الذى يعنى الاكتساء بكساء للجسم من خارجه، هو من خصائص الإنسان التى كرمه الله بها وميزه بها على سائر المخلوقات؛ ولهذا فقد امتن الله به عليه وجعله دلالة على نعمه على البشر، وهو تكريم لهذا المخلوق المفضل على كل المخلوقات. قال الله، تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ

(١) سورة لقمان ـ الآيتان (١٨ و ١٩).
(٢) سورة الإسراء ـ الآيات (٣٧ ـ ٣٨).

ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

واللباس إلى جانب أنه ستر للعورة فإن له دلالة على سلوك صاحبه ونفسيته، ودلالة على أخلاق الأمم ورقيها وتحضرها، فكلما كان اللباس فاضحا وغير ساتر ومظهرا لدواخل الجسم - دل على ضمور الأخلاق الكريمةوالصفات الإنسانية؛ لأنه من خصائص الإنسان، فنقصانه يعنى نقصان الإنسانية، وحسنه والتستر به يعنى عكس ذلك تماما.

وما نراه اليوم من تكشف وعرى فى الأمم غير الإسلامية عامة والغربية خاصة - يدل على تفسخ تلك الأمم من إنسانيتها، وأن نفسياتها تميل إلى الحيوانية والشهوانية الجسدية فنزلت عنها مستويات القيم الكريمة، فتشهد عليهم ألبسة نسائهم التى لا تكاد توارى شيئاً من سوءاتهن وألبسة رجالهم القصيرة الضيقة التى تبرز العورة مغلظة ومحددة، بل تدنت الأخلاق حتى نزلت بهم إلى تخصيص أندية وأماكن خاصة لا يدخلها إلا العراة تماما بتمام!! وهو أمر يعرفه كل من زار تلك البلاد، وأدى هذا بدوره إلى انحطاط نفسى وأخلاقى متسلسل كل سلسلة تؤدى إلى غيرها، حتى وصل بهم الحال إلى أن تبيح برلماناتهم الفواحش مثل اللواط والزنى، إذا كان برضا الطرفين!! فشاعت الفاحشة، وانتشرت الرذيلة؛ حتى تسبب لهم ذلك فى أفتك الأمراض وأخطرها مثل مرض نقص المناعة الذاتية المرموز له باسم (الإيدز) والمعروف أن السبب الرئيسى لانتقال عدواه هو الفواحش بكل أنواعها، وهذا كله كان السبب الأول فيه هو اللباس الكاشف للجسد الفاضح للعورة التى أمر الله بسترها، وجعلها علامة تحضر على الإنسان ومن خصائصه.

---

(١) سورة الأعراف - الآيتان (٢٦ و ٢٧).

وقد جاءت بعض الآثار عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، تحض على اللباس والتجمل به فى غير ما خيلاء، بل لستر العورة، منها:

(.. تسرولوا وائتزروا وخالفوا أهل الكتاب...)[1].

وجاء: (اتخذوا السراويلات، فإنها من أستر ثيابكم، وحصنوا بها نساءكم إذا خرجن)[2].

وقال، صلى الله عليه وسلم: (البسوا الثياب البيض، فإنها أطهر وأطيب، وكفنوا فيها موتاكم)[3].

واللباس له أثر كبير وظاهر على السلوك الخارجى والتفاعل النفسى؛ حيث يمكن للداعى أن يتعامل مع الشخصيات المدعوة على ظواهر ذلك، وأن يجعل من مظهر اللباس دلائل على الشخصية، فيحتاط لها بما يلزم من معاملة، فاللباس يدل على نوعية الشخصية، مثله فى ذلك مثل الشكل الخارجى للجسم يدل على شخصية وفكر ومعتقد صاحبه وسلوكه. فإن الشخص الذى يلبس ثيابا لا تستر العورة ـ سواء أكان رجلا أو امرأة ـ أو ثيابا ذات ألوان صارخة أو ضيقة أو لا تناسب حاله وشخصيته ـ كل ذلك له دلالة على الشخصية ودلالة على نفس اللابس.

وبالعكس فإن صاحب اللباس المحتشم واللون الهادئ واللباس المناسب المنسجم مع الشخص ذاته، يدلنا لباسه ذلك على شخصيته، ويعطينا مؤشر التعامل معها.

ولكن يلزم مراعاة البيئات واختلافها فى نوعية اللباس؛ فإن من اللباس ما يعتبر دليلا على عدم اللياقة وسوء الأدب فى بلاد ما، فى حين أنه فى بلاد

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده ٥/ ٢٦٤.
(٢ و ٣) رواه الإمام أحمد وغيره، انظر المسند ٥/ ١٣.

أخرى يعتبر أمرا عاديا، فلقد وجدتُ بعض البلاد تعتبر لبس الإزار للرجال من الأمور المخلة بالرجولة والمعيبة جدا، ويعتبرونه من ألبسة النساء، فى حين أنه فى بلاد أخرى من ألبسة الرجال دون النساء، كما وجدتُ بعض البلاد تعيب على الرجال لبس السروال، وتجعله من خصائص النساء والعكس فى بلد أخرى حيث هو خاص بالرجال دون النساء. . .

وهذا كله ينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار عند الحكم على لباس الشخص؛ لنستدل به على سلوكه ونفسيته، فبعد معرفة أنواع الألبسة وعرفها عند الناس فى البيئة المعينة تؤخذ الدلالة الحُكمية، فإذا كان العرف كله منحرفا عن الذوق الإنسانى الرفيع فى اللباس، كما ذكرنا سابقا عن الغرب، فإن على الداعية أن يبدأ بعلاج ذلك بالطرق والوسائل التى تفيد فى تعديل هذا السلوك المعوج؛ حتى يستقيم مع سلوك الناس الأسوياء كما أراد لهم خالقهم. . .

إذا كانت تلك دلالات اللباس العامة على السلوك النفسى، فإن للألبسة معانى ومنافع أخرى تعتبر من نعم الله على الإنسان وإن لم تكن تعنى تغطية الجسد مباشرة، ولكنها تعنى نوعا من الستر والحفظ الذى يفيد الإنسان ولا يمكنه أن يستغنى عنه بحال من الأحوال، نذكر طرفا منه مما جاء فى القرآن الكريم للفائدة الدعوية العامة؛ حتى يتذكر الإنسان نعم الله عليه، فيعدِّل من سلوكه، وتهدأ نفسه، ويسير فى الطريق السليم، وهو من أهداف علم نفس الدعوة فى الارتقاء بالإنسان، ونذكر بهذا الخصوص ما يلى:

اللباس بمعنى، التمتع والرفاهية والراحة:

إن الإنسان إذا عرف أن الشريعة الإسلامية جاءت لراحته وسعادته وأنها تسعى به لكى يتمتع بنعم الله عليه فى غير ما إسراف ولا تقتير، فإنه إذا عرف ذلك صلح حاله، ونظر إلى الدنيا نظرة تفاؤلية، فيحيا كما أراد له الله ذلك.

فمن ذلك تعاقب الليل والنهار، وحتى تتم الراحة للإنسان فإن الله سلب من الليل الضوء الساطع الذى يسبب نوعا من النشاط لأجهزة التنبيه فى العصب الحسى لدى الإنسان فيظل مستيقظا ونشيطا فى النهار، فإذا جاء الليل بظلاله وسكونه وهدوئه تراخى عصب الحس حتى ينام الإنسان هادئا مرتاحا، مما يجعله يتقبل يومه فى همة ونشاط، نجد ذلك كله فى الآيات التالية، كما فى قوله: تعالى:

﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾[3].

ومن متعة اللباس وراحته للنفس قوله تعالى، عن لباس أهل الجنة ومدى متعتهم النفسية به: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾[4].

وقال تعالى، فى المعنى عن لباس أهل الجنة وزينتهم:

---

(١) سورة الأنعام ـ الآية (٩٦).

(٢) سورة يونس ـ الآية (٦٧).

(٣) سورة غافر ـ الآية (٦١).

(٤) سورة الحج ـ الآية (٢٣).

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾[1].

وقال عن البحر وما فيه من خيرات ونعم، ومنها اللباس للزينة والمتعة:

﴿ ... وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ... ﴾[2].

إن نعيم أهل الجنة لا يحصى، ومتع الروح والنفس عندهم لا تفنى؛ ولهذا لا يجد الناس فى الجنة صخبا ولا نصبا ولا كدرا، ولا معاناة نفسية، ولقد نوع الله لهم من زينة اللباس؛ لما له من أهمية وقيمة لدى الإنسان، ففى الآية الآتية ما يثلج النفس، ويبهج الروح ويجعلها فى غاية السرور والحبور من ألوان وأنواع الألبسة:

﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ... ﴾[3].

وليس من لون يريح الأعصاب ويهدئ النفوس أكثر من لون الخضرة، فهى فى الزرع والنبات عامة، وكذا على الجسد فى اللباس، لا تختلف كثيرا حيث المتعة للعين وراحة النظر التى يتبعها راحة النفس وطمأنينتها...

وكذلك نجد الراحة النفسية والسكون والهدوء الذى فيه معنى من معانى اللباس الذى يأتى بمعنى الراحة فى قوله، تعالى، عن الليل وما فيه من جُنَّة ووقاية وستر للإنسان عامة؛ ولهذا عبر الله عنه باسم اللباس فقال:

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾[4].

---

(١) سورة فاطر ـ الآية (٣٣).
(٢) سورة فاطر ـ من الآية (١٢).
(٣) سورة الكهف ـ من الآية (٣١).
(٤) سورة النبأ ـ الآية (١٠).

مثلما قال فى آية أخرى عن سكون الليل وهدوئه:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ... ﴾[1].

كما جاء اللباس بمعنى الستر عامة والحفظ الحسى والمعنوى، وفيه معنى الطمأنينة والراحة أيضا، وكلها معان تنصب على راحة البشر واستقرارهم النفسى والجسدى، ومن ذلك الزوجة التى تعتبر سكنا ولباسا للرجل كما هو لها كذلك:

﴿ ... هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ... ﴾[2].

قلنا إن اللباس الحسى الجسدى، يدل على الشخصية والحالة النفسية والسلوك العام للابسه، ويعطى الداعية الدارس المراقب لسلوك المدعوين مؤشرات يستفيد منها فى التعرف على سلوك الشخص المدعو، حيث تدل الألبسة الصارخة الألوان أو التى تكشف الجسد على السلوك، كما أن الذى لا يلبس ألبسة لائقة لا يكون مطمئنا فى نفسه وتجده دائما مضطربا ووجلا خائفا، بل ويخيف غيره بسلوكه فى اللباس الذى يخالف سلوك الناس الأسوياء.

هذا بالنسبة للباس الجسدى، الذى يرادف فى المعنى العام والمضمون، عدم الاستقرار النفسى الذى تحصل معه النتيجة النهائية على دفع الشخص نحو سلوك معين يخالف سلوك الآخرين، وإلى جانب ذلك نجد القرآن يذكر اللباس بنوع آخر من أنواع السلوك يؤدى بدوره إلى مضاعفات خطيرة على الإنسان، ويجعل سيره ومنهجه فى الحياة مضطربا. فمن ذلك الخوف، فهو نوع من السلوك تصحبه دوافع تؤدى إلى سلوك معين، فجعل القرآن الخوف

---

(١) سورة يونس ـ من الآية (٦٧).

(٢) سورة البقرة ـ من الآية (١٨٧).

نوعا من اللباس، يمكن أن يكتسى به الإنسان كساء معنويا يؤدى إلى سلوك خارجى حسى، فقال، تعالى:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾[1].

ومن آثار اللباس على السلوك، التكبر والخيلاء، حيث يدفع اللباس الفاخر الجميل صاحبه إلى التباهى به والكِبْر والتعالى على الآخرين، وهذا نوع عصيب من أمراض النفس التى تضر بصاحبها وبالمجتمع على حد سواء، حيث يفوِّت المتكبر على نفسه كثيراً من المصالح بسبب التكبر والبطر، فهو إن كان جاهلا يتكبر على التعلم فيظل يرفل فى جهله حتى يموت، وإن دله أحد الدعاة على فعل خير يأنف بنفسه عنه، وإن نهى عن منكر تأفف وصد عن الموعظة وازدرى الداعى وحقره؛ لأنه فى زعمه كيف يتطاول عليه وهو السيد المهيب!!

ولقد منع الكبر الكثيرين من إجابة الدعوات والدخول فى دين الله أو الكف عن المحرمات والموبقات؛ ولهذا فقد نهى الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن جر الثوب تكبرا، فقال:

(إن الله لا ينظر لمن جر ثوبه خيلاء، وفى رواية: إن الله لا ينظر لمن جر ثوبه بطرا)[2].

ولهذا فقد حث الإسلام على التوسط والاعتدال فى اللباس؛ حتى لا يؤدى بصاحبه إلى التبختر والكبر.

---

(١) سورة النحل ـ الآية (١١٢).

(٢) متفق عليه، البخارى بشرحه فتح البارى، كتاب اللباس (١)، ١/ ٢٥٢، دار المعرفة ـ بيروت، مع اختلاف فى بعض الألفاظ حسب الروايات، ومسلم ـ كتاب اللباس رقم (٢٥)، والترمذى ـ كتاب اللباس ـ باب (٨)، ٤/ ١٩٥، دار الفكر ـ بيروت (١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م).

وهذا لا يمنع التجمل باللباس أبدا، ولكن يجب أن يفرق بين اللباس الجالب لتعالى النفس، واللباس الذى يُتَّخَذُ لمجرد التجمل فى الحدود المستحسنة عند الناس، وقد كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يتجمل باللباس وأنواع الثياب وفى نفس الوقت ينهى عن الفاضح من اللباس والذى لا يليق بالإنسان.

فقد قال الله، تعالى:

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[1].

وقد جاء فى الأثر النهى عن لباس الشهرة الذى يؤدى إلى تعالى النفس، كما ورد النهى عن الألبسة التى تزرى بصاحبها وتهينه، ومن ذلك النهى عن الألبسة المشهورة فى حسنها، والمشهورة فى قبحها.

وورد عنه، صلى الله عليه وسلم، قوله:

(من لبس ثوب شهرة ألبسه الله يوم القيامة ثوبا مثله، ثم تلهب فيه النار)[2].

ومن فوائد اللباس ومهامه حفظ الجسد من الضرر والتلف، وكل إنسان عاقل يعرف علاقة الجسد بالنفس، حيث إذا اعتل الجسد ومرض فإن النفس تتبعه فى ذلك وتصبح مضطربة وغير مستقرة، ولقد جاءت نتائج كثير من البحوث حول علاقة النفس بالجسد لتقول: إنها علاقة لا تنفصم، فكثير من أمراض الغدد تتسبب فى تدهور النفس واضطرابها وانحرافها واختلال مزاجها واضطراب الشخصية ـ كما سنذكر لاحقا إن شاء الله[3].

---

(١) سورة الأعراف ـ من الآية (٣٢).

(٢) رواه أبو داود فى كتاب اللباس ـ باب (٤) فى لبس الشهرة ـ حديث (٤٠٢٩)، ٣/٤٣ دار الفكر ـ بيروت (بدون تاريخ) وابن ماجه ـ كتاب اللباس ـ باب (٢٤) من لبس ثوب الشهرة. والإمام أحمد فى المسند ٢/١٣٩، وزاد: ألبسه الله، تعالى، ثوب مذلة.

(٣) انظر: أصول علم النفس، د/ أحمد عزت ـ ص ٤٢٠، ط٧ ـ المكتب المصرى (بدون تاريخ).

ولقد أظهرت الأبحاث الطبية أن اللباس الذى يستر الجسد له فوائد كبيرة فى حفظه من الأمراض التى تسببها بعض الميكروبات والجراثيم التى تدخل الجسم عن طريق الجلد والمسام الدقيقة، إضافة إلى التعرض للتلوث عن طريق الغبار والأتربة العالقة فى الجو والتى تحمل معها كثيرا من الأمراض الضارة بالجلد، كما أن اللباس يقى الجسم من التعرض المباشر لأشعة الشمس التى تنبعث منها أشعة ضارة مثل الأشعة فوق البنفسجية، فإن (أشعة الشمس الحارة تهدم أسوار الدفاع الذاتى الموجودة داخل جسم الإنسان، وقضاء الساعات تحت أشعة الشمس أشبه بالتدخين بكثافة فى مكان مغلق.. كما أن التعرض للأشعة فوق البنفسجية يشجع على انتشار سرطان الجلد، بل ويتسبب فى دخول الجلد مرحلة الشيخوخة قبل الأوان...

ولقد قام علماء متخصصون فى الولايات المتحدة وفرنسا، مؤخرا بإجراء بحوث عن نتائج ارتداء المرأة للملابس القصيرة، فأخذوا مقاييس لسيقان بعض الفتيات قبل ارتدائهن (المينى جوب) ثم أخذوا مقاييس للسيقان نفسها بعد مدة معينة من ارتدائه فوجدوا أن هذه السيقان قد تضخمت بنسبة خمسة بالمائة، وتغير لون جلدها بنسبة سبعة فى المائة، ولقد نشرت المجلة الطبية البريطانية أن السرطان الخبيث الذى يصيب الجلد فى المناطق المكشوفة من جسد المرأة، أصبح فى تزايد عقب انتشار موضة (المينى جوب) أو الملابس العارية القصيرة بسبب تعرض المناطق المكشوفة لأشعة الشمس فترات طويلة على مدار السنة، وهو يبدأ أولاً بصورة بقع صغيرة سوداء فى القدم أو الساق العارية، ثم يأخذ فى الانتشار فى كل مكان فى الجسم)[1].

ولقد أشار القرآن الكريم إلى نعمة كساء الجسم ووقايته من لسع وهج الشمس وتخلل أشعتها للجلد، فقال، تعالى ذاكرا الظل وفوائده التى يجملها القرآن فى

(١) مجلة الوعى الإسلامى، العدد (٣١٦) ذو القعدة ـ ذو الحجة ١٤١٢ هـ ـ يونيو ١٩٩٢م. ص ٨٧ ـ ٨٨.

إعجاز لايدانيه إعجاز: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾[1].

ولقد أشار إلى هذا الترابط الوثيق النبى، صلى الله عليه وسلم، فى تمثيله للمسلمين فى وحدتهم وأنهم يتألمون لألم إخوانهم ويفرحون لفرحهم، هذا الترابط الذى تناساه المسلمون فى حاضرهم، إلا قليلا منهم، وهو: (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى)[2].

ومعلوم أن الذى يحس بالألم ويتداعى للسهر والحمى هو النفس الْحَالَّةُ فى الجسد، ولولا النفس ما شعر الجسد بشىء، فالمعنى العميق البعيد يشير لهذا الترابط.

الألبسة المحرمة وأثرها على النفس

وهناك نوع من الألبسة حرمها الشرع الإسلامى، والناظر الفاحص إلى هذه النوعيات المحرمة يجد لها التأثير الكبير على نفسية الشخص وسلوكه المنحرف، فمن الألبسة التى حرمها الإسلام لتأثيرها على الشخصية وتحويرها عن خطها الصحيح السليم، نوع اللباس الخاص بالنساء والآخر الخاص بالرجال، فقد (لعن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل)[3].

فإن الرجل له شخصيته المميزة التى تؤهله ليقوم بالأعباء المنوطة به، وكذا

---

(١) سورة النحل ـ الآية (٨١).

(٢) متفق عليه، البخارى ـ كتاب الأدب (٢٧) الفتح ٤٣٨/١٠ ومسلم ـ كتاب البر والصلة والأدب، (٦٦) مسلم بشرح النووى ١٦/ ١٤٠.

(٣) رواه أبو داود ـ كتاب اللباس ـ باب (٢٨) حديث رقم (٤٠٩٨) وأحمد فى المسند ٢/ ٣٢٥.

المرأة لها ذاتيتها المستقلة المرغوب فيها. فإذا تقمص كل واحد شخصية الآخر ذابت شخصيته المميزة؛ وأصبح شخصية ممسوخة ومشوهة وغير قادرة على تأدية أى عمل خاص، حيث المتقمص لشخصية غيره لن يستطيع أن يكون مثله؛ لأن لكل واحد تركيبه الجسدى والنفسى، وبالتالى تصبح الشخصية مسخا مشوها لا إلى هذه تنتمى ولا إلى تلك، فتصبح النفس مجزأة ومبعثرة... وينطبق على هذا العمليات الجراحية العضوية التى تجرى لبعض الناس بغرض تحويلهم عن جنسهم، من الذكورة إلى الأنوثة، ومن الأنوثة إلى الذكورة، فإنها تجانب الخلق السليم الحميد إلا إذا كان بالعضو التناسلى عيب ولد به الشخص، وحينئذ تدخل فى عملية العلاج والتجميل.

ولهذا فقد نهى الله، تعالى، أن يتمنى الرجل أن يكون امرأة، وأن تكون المرأة رجلا؛ حيث إن كل واحد قد فضله الله على الآخر بالخلقة التى خلقه عليها وأهله لها، والإسلام يحث الناس على الاستقلال بالشخصية ومنع تمييعها وتذويبها..

قال، تعالى: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ... ﴾[1].

ولا نريد أن نخوض فى الفروق بين المرأة والرجل؛ لأن هذا له مجال آخر غير هذا الكتاب، وقد كتب فيه كثيرون، كل فى مجال تخصصه، واتضحت للجميع فروق أساسية فى التركيب العضوى الجسدى والذهنى والمعنوى والصوت والنفس والانفعالات، بل حتى الذكاء وجدوا فيه فوارق..

والذى يهمنا هنا هو إبراز التأثير النفسى الذى، يحدثه انتحال كل طرف لشخصية الآخر، حيث يظهر جنس ثالث لا هو خالص الذكورة ولا هو كامل الأنوثة، فتنحدر أخلاق المجتمعات ويختل تركيب السكان وتوازنه.

(١) سورة النساء ـ من الآية (٣٢).

وهذا الفارق أمر اقتضته حكمة الله؛ لتحتفظ البشرية ببشريتها، وليكون كل من الرجل والمرأة مكملا للآخر، وحتى فى الماديات وجد أن الأقطاب المتشابهة تتنافر ولا تتجاذب، والعكس تجاذب المختلفة وتآلفها!! ولعل هذا من حكمة الله فى الاختلاف الْبَيِّنِ بين الذكر والأنثى، ولله فى خلقه شئون.

ونشير الآن إلى مثال واحد معاصر على الاختلاف بين الذكر والأنثى، وهو مثال حى ومن امرأة ليس عادية، بل قادت أمة بأسرها أَمَداً من الزمن، تعترف بالفوارق بينها وبين الرجال، وهذا فيه رد مفحم وضربة لازب على داعيات المساواة بين الرجل والمرأة، مما يدلل أن ادعاءهن زور وبهتان، ليس وراءه مثقال حبة من خردل من الحقيقة.

تقول رئيسة الفلبين (كورازون اكينو) فى تصريح أدلت به إلى وكالة أنباء رويتر فى السابع من شهر ربيع الأول عام ١٤٠٨ هـ الموافق للثلاثين من شهر أكتوبر عام ١٩٨٧م، تقول فيه:

(إنه بوسع الرجل أن ينهض من الفراش، ويمشط شعره؛ ليكون مستعدا لمباشرة عمله خلال دقائق، غير أن الأمر يختلف بالنسبة للمرأة... وتسوق مثلا على ذلك من واقعها فتقول:

فى ليلة محاولة الانقلاب الفاشلة فى الثامن والعشرين من أغسطس الماضى، عندما تم إيقاظى من سبات عميق لإبلاغى بنبأ محاولة جنود متمردين اغتيالى، انصرف ذهنى حينئذٍ إلى الاهتمام بمظهرى... وتابعت حديثها الذى أدلت به إلى رابطة الصحفيين الأجانب في مأدبة عشاء فى الفلبين تقول:

لو كنت رئيسا - أى رجلا - فكل ما يتعين علىَّ أن أفعل، هو ارتداء ملابسى، وهذا كل ما فى الأمر، ولكن فى حالة كون رئيس البلاد امرأة، فإن الأمر يتطلب الاهتمام بالميكياج!!)[1].

(١) مجلة الوعى الإسلامى، العدد (٣١٦) ص ٩٠ (ذو القعدة - الحجة ١٤١٢ هـ) يونيو ١٩٩٢ م.

فهذه امرأة ذات منصب وسلطة تعترف بالفوارق الْبَيِّنَة، والاعتراف سيد الأدلة، كما يقول أصحاب القانون، وهذا يظهر لنا مدى الأثر النفسى الذى يتركه تجاذب الذين يطالبون بالمساواة بين الجنسين.

ثالثا: المركب:

إن المركب بأنواعه وأشكاله المختلفة، قديمها وحديثها ـ يدل دلالة واضحة المعالم على نفسية وسلوك راكبه، فالذين يركبون السيارات الصغيرة ذات الإطارات العريضة والشكل الممدد وكأنها سلحفاة أو سمكة ولها من الخلف مثل ذيل الأرنب وسرعتها تفوق (٤٠٠) كيلو فى الساعة، و ذات الطلاء اللامع الصارخ والمزمار العالى الأجش والأصباغ الخاطفة للبصر... إلى آخر تلك الأوصاف، مثل هؤلاء الناس يعرف الداعى الحَذِق أنهم من فئة معينة من البشر، وأن لهم نفسيات وسلوكيات مختلفة، وبالتالى يلزم لهم معاملة خاصة بهم تناسب وضعهم، وتحبب الداعى إليهم، وتجعلهم ينجذبون إليه، وهؤلاء عادة يكونون بعيدين عن السلوك المعتدل أو الوسط، وينفرون ـ غالبا ـ من المتدينين، وخاصة الذين تظهر عليهم علامات وسلوكيات التدين؛ ولذا فهم يحتاجون إلى نوع خاص وبارع وحذر من التأليف المتدرج، حسب وضعهم النفسى والسلوكى الجامح الجانح...

والمركب ـ حسب نوعه ـ قد يتسبب فى عوامل نفسية جديدة لصاحبه، لاسيما إذا كان فخما وجديدا ونادر الوجود فى تلك البيئة، فإذا ركبه ضعيف الإيمان وسبح به فى تيه ودلال لا يشمس ولا يجمح، ونظر إلى عطفيه فى برديه، وانتشى، فإن ذلك يؤدى إلى البطر والخيلاء، وهما من صفات النفوس المريضة التى تصاحب السلوك المائل.

أما إذا كان من الصالحين المسبحين فإنه عندما يشتريه جديدا يقول: ما شاء الله!! تبارك الله!! اللهم إنى أسألك خيره وخير ما هو له، وأعوذ بك من

شره وشر ما هو له، وعندما يركبه يقول: باسم الله مجراها ومرساها، ويقول: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾[1].

هذا هو دواء علة السلوك المنحرف عند أصحاب المركب الذى يزهو به صاحبه ويختال عجبا، يقوله الداعى أمامه أو يلقنه له إن اطمأن على ثورانه ونزواته.

ولما كان المركب عرضة للانحراف بالنفس والانجراف بها صوب الطريق المعوج، فقد ذكره الله من ضمن نعمه على الإنسان؛ لعله يتذكر أو يخشى: يتذكر خالق هذه النعم، ويخشى عقابه وعذابه.

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2].

وفى تعبير (ويخلق ما لا تعلمون) تهدئة للنفوس الطافحة بالعجب بما تحت يدها من المركب الذى تظن أنها بلغت به غاية ما يمكن أن يركبه بشر، فيأتيها الخبر اليقين بأن الذى هدى عقول خلقه إلى هذا ـ قادر على هدايتهم لما هو أفخم وأجمل فلا تغتر، وتريث رويدك، مما يجعل ذلك المعجب المختال المتعالى يتراجع؛ ليراجع حساباته الخاطئة؛ لأن هناك ما لا يرقى إليه علمه ولا يطاوله ماله.

وهذه المركوبات لو شاء الله لجعلها فى غير متناول يدك أيها المتكبر، أو لو شاء لما هيأ لك المال لاقتنائها، أو لو شاء لجعلها شامسة جامحة لا تستطيع

---

(١) الزخرف ـ آخر الآية : ١٣ ثم الآية : ١٤.

(٢) سورة النحل ـ الآيتان: ٧ و ٨.

امتلاكها وتذليلها وتطويعها، والتطويع أنواع: منه تسخير المواد الخام لصنعها وتوفير مستلزمات ذلك كله وجعله فى متناول اليد، وتيسير وتسخير كل ما يمكن أن يساعد فى صنعها وجمالها... وجعل كل ذلك طوع الإرادة، وطوع البنان، يصنعه كيفما يشاء، فهو تذليل وتسخير وهداية من الله خالق هذا الكون من مثقال الذرة إلى المجرة. فسبحان الذى سخر لنا هذا وذلله لنا: ﴿ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ ... ﴾[1]، فالتذليل لا يقتصر على الحيوان فقط كما يفهمه أصحاب النظر القصير، بل إنه يعنى التهيئة وإعداد الشىء حتى يكون طوع الخدمة؛ ولهذا جاء عن الأرض مثل هذا المعنى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا ... ﴾[2].

وملخص القول هنا، أن أكثر ما ذكرناه عن اللباس يمكن أن ينطبق على المركب نفسه عليه نحيل القارئ هناك، فليراجعه.

المطلب الثانى: الارتقاء بالإنسان من حيث المعتقد

من أهداف علم نفس الدعوة أن يسمو بالإنسان ويرقى به من حيث عقيدته؛ وذلك لأن العقيدة تشكل العامل الأهم فى تكوين الإنسان النفسى والسلوكى على حد سواء.

فكلما كانت عقيدة المرء صافية وإيمانه قوياً، وتصديقه جازماً لايداخله شك ـ كان هادئ النفس، حسن السلوك سليم المنهج، والعكس بالعكس، فإنا نجد أصحاب العقائد المنحرفة يصابون بأنواع كثيرة من الأمراض النفسية والعقلية، كما ينحرفون فى سلوكهم عن سلوك الناس الأسوياء من أصحاب العقائد الصحيحة.

فصاحب العقيدة الصحيحة فى الله يكون مطمئن النفس هادئ البال، لا

---

(١) سورة يس ـ من الآية (٧٢).

(٢) سورة الملك ـ من الآية (١٥).

يصيبه قلق ولا اضطراب نفسى، فهو يُحَصِّنُ نفسه بذكر الله، ويحفظ سلوكه بعبادته لربه على الوجه السليم، ويسمع قوله، تعالى، لعباده المخلصين:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[1].

والمؤمن بالله الواحد الأحد نفسه مطمئنة صافية زاكية، وبقضاء ربها راضية، تطمئن بإحساسها بالصلة بالله، والأنس بجواره، والأمن فى جانبه وحماه، تطمئن من قلق الوحدة وحيرة الطريق، بإدراك الحكمة فى الخلق والمبدأ والمصير، وتطمئن بالحماية من كل اعتداء ومن كل ضرر ومن كل شر إلا بما يشاء، مع الرضا بالابتلاء والصبر على البلاء[2] والشكر على النعماء، لا تبطر ولا تطغى؛ لأن الطغيان نوع من جنون النفس وانفصام الشخصية غير السوية.

والمؤمن يذكر قول الرسول، صلى الله عليه وسلم، فى أحوال المسلم مع إيمانه ومع تقلبات الدهر وصروفه، فهو يعمل ويجتهد ويقوم بكل الأسباب، ولكن تحصيل النتيجة وجنى الثمار هو من قَدَر الله، يسمع قول الرسول، صلى الله عليه وسلم:

(عَجَباً لأمر المؤمن! إن أمره كله خير: إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن إصابته ضراء صبر فكان خيرا له، عَجَباً لأمر المؤمن! فإن أمره كله خير، وليس ذلك إلا للمؤمن)[3].

ولكن غير المؤمن أو صاحب العقيدة المنحرفة غير ذلك فهو غير سوى الشخصية، بل هو مضطرب وقلق، تضيق به الحياة، ويتبرم بها ويضيق بها،

---

(١) سورة الرعد ـ الآية (٢٨).

(٢) انظر: فى ظلال القرآن، لسيد قطب، ٤/ ٢٠٦٠.

(٣) مسلم ـ كتاب الزهد ـ رقم (٦٤) وأحمد فى المسند ٤/ ٣٣٢ و ٣٣٣ و ٦/ ١٥.

ولا يكاد يسعه مكان، ولا يستقر له حال، ولا تسكن نفسه، فهو هائج وثائر ووجل، وَجِلٌ من كل ما حوله؛ لأنه لا يدرى لماذا جاء لهذه الدنيا، وما مهمته فى هذه الحياة، وما مصيره، وإلى أين مسيره، لا يدرى هل هو خلق ليأكل ويشرب وينام ثم يموت!! وهذا مصير كل الحيوانات! فهو لا يرى لنفسه فَرْقاً عليها إذَنْ! وهذا هو معدن الحيرة وسبب الاضطرابات النفسية والأمراض العقلية، إنه مضطرب حيران تائه، ولسان حاله يقول:

لَبِسْتُ ثوبَ العمر لم أُسْتَشَرْ وحِرْتُ فيه بين شَتَّى الفِكَرْ!!

وسوف أنضو الثوب عنى ولم أدْرِ لماذا جئت؟ أين المفر؟!

(وكأن هذا الحائر الخائر الإيمان لو استشير ـ حسب وجهة نظره ـ لقال: لا فائدة فى حياتى، ولا خير فى بقائى...)[1]، وما ذلك إلا لاضطراب العقيدة وضعفها. وهكذا يستمر الاضطراب النفسى والحيرة:

جئت، لا أعلم من أين، ولكنى أتيتُ!
ولقد أبصرت قُدَّامى طريقا فمشيتُ!
وسأبقى سائرا إن شئت هذا أم أبَيْتُ!
كيف جئت ؟ كيف أبصرت طريقى ؟! لست أدرى !!

أجديد أم قديم أنا فى هذا الوجودْ ؟!
هل أنا حر طليق أم أسير فى قيودْ ؟!

(١) انظر: منهاج الحياة، ص ١٣، د/ محمد زين الهادى، نشر دار العاصمة الرياض ط ١ (١٤٠٨ هـ).

هل أنا قائد نفسى فى حياتى أم مقودْ ؟!
أتمنى أننى أدرى ولكن: لست أدرى !!

وطريقى ما طريقى؟ أطويل أم قصيرْ ؟!
هل أنا أصعد أم أهبط فيه وأغورْ ؟!
أأنا السائر فى الدرب أم الدرب يسيرْ ؟!
أم كلانا واقف والدهر يجرى ؟! لست أدرى !!

ليت شعرى وأنا فى عالم الغيب الأمينْ !
أترانى كنت أدرى أننى فيه دفينْ !
وبأنى سوف أبدو، وبأنى سأكونْ !
أم ترانى كنت لا أدرك شيئا ؟! لست أدرى !!

أترانى قبلما أصبحت إنسانا سوياً !
كنت محوا أو محالا أم ترانى كنت شيًّا !
ألهذا اللغز حل أم سيبقى أبديًّا ؟ !
لست أدرى. . . ولماذا لست أدرى ؟! لست أدرى !![1]

أما فى العقيدة الصحيحة، عقيدة الإسلام، فإن المسلم يعرف ويدرك مهمته فى هذه الحياة: لماذا خلق؟ ولماذا جاء إلى الأرض؟ ويعرف ما مصيره، حسب ما يكون عمله فى الدنيا.

(١) انظر. ديوان الجداول ـ لإيليا أبى ماضى ص ١٠٦ من قصيدته (الطلاسم).

يعرف أنه مستخلف فى هذه الأرض؛ ليعمرها ويسعى فيها بالخير للناس جميعا، ويقيم الدين لله حنيفا، ويعرف أن الله خلقه، أيضا لعبادته... كل ذلك مسطور له فى القرآن الكريم... ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1].

﴿ ... هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ... ﴾[2].

والأبيات التالية تعكس نظرة المسلم للحياة ولمهمة وجوده فيها، والغاية التى يرنو إلى الوصول إليها، وهى فى نفس الوقت تعكس لنا الفرق بين الوضع النفسى للمؤمن وغير المؤمن، يقول الشاعر المؤمن:[3]

هات ما عندك هاتِ ... يا زمانَ الأَزَمَاتِ

أنا لا أخشاك فانثر ... كل ما فى الجُعُباتِ

وارم من نَبْلك ما شِئْـ ... ـتَ فلن تثنى قناتى

هل ترى الإعصار يوماً ... هَزَّ شُمَّ الراسيات ؟

أنا محمى بدرع ... من يقين وثباتِ

مَعِىَ اللهُ فَلِمْ لا ... أتحدى النائباتِ ؟

مَعِىَ الإيمان يهدى ... نى ببحر الظُّلُماتِ

مَعِىَ الإخلاص، ينجى ... مركبى، والموج عاتِ

---

(١) سورة الذاريات ـ الآية (٥٦).

(٢) سورة هود ـ من الآية (٦١).

(٣) نشرت القصيدة فى جريدة (المسلمون) العدد (٣٩٥) الجمعة ٣٠ من صفر ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢/٨/٢٨.

مَعِـىَ الصبـر شراعـى فـى خِضـَمِّ الحادثـاتِ
مَعِـىَ الحـق وحـب الْـ ـخير حـب المكرمـاتِ
مَعِىَ حُبُّ الـورى، هـم إخـوتـى أو أخـوَاتـى
قـد صفا قـلبى من الشَّحْـ ـناء إلا للطـغاةِ
لَفـَظَ الحـقدَ وأمـرا ضَ القـلوب المهلـكاتِ
يـا زمـانى أنـا حـر حَـرَّرَ الإسـلامُ ذاتـى
أنـا باللـه عـزيـز عـزتـى فـى سَـجَداَتى
أنـا للـه ولـىٌّ لا لِعـُزَّى أو مَنَـاةِ
أنـا عبـد اللـه لا عبـ ـدُ الهـوى والشهـوات
فَنَبَـتْ نَفْـسِىَ عـن نفـ ـسى فَسُـدتُ الكائنـاتِ
سَخـَّرَ اللـه السمـا والْـ أرض لـى والنَّيِّـراتِ
أنـا أقـوى الخـلق باللـ ـه بِـذِكْـرِى بِصـَلاتـى
كـم توجـهت إليـه فـى دياجـى الكُرُبَـاتِ
كـم أنَاجِـيه فَأُلْفِيـ ـه مُجِيـباً دَعَـوَاتـى
سامـعا هَمـِّى وسـرِّى ودبيـبَ الخُطُـوَاتِ
قابِـلاً مِنِّـى قليـلى مـن فُـتَاتِ الحَسَـنَاتِ
غافـراً ما آدَ ظهـرى مـن جِبَـالِ السَّيِّـئَاتِ

ساتراً ما لا يراه خَلْقُه من كَبَوَاتِى
أنا أغنى الخلق بالْحَـ ـقِّ بِأَغْلَى الثَّرَوَاتِ
لا يُدَانِى كلُّ مُلْكِ الْـ أرض إحْدَى رَكَعَاتِى
إن يكنْ قد تاه (إيليا) فى فَيَافِى الْفَلْسَفَاتِ
بات حيرانَ يُعَانى من شُكُوكٍ مُظْلِماتِ
بات لا يعرف معنًى لحياةٍ أو ممات
بات لا يفرق بين الْـ ـملح والعذب الفرات
فأنا أدرى وأدرى ولِمَ ادرى سِرَّ ذاتى
أنا أدرى مبدئى من أى شىء أنا آت
أنا أدرى أين تمضى رحلتى بعد الوفاة
أنا أدرى غايتى أعـ ـرف منهاج حياتى
حَسْبِىَ القرآن أتلو هُ فيُحْيِى لى مَوَاتى
شرحتْ لى أصل خَلْقِى بعضُ آىِ (المُرْسَلاتِ)[1]
وتجلَّى لى مصيرى إذْ تلوتُ (النازعاتِ)[2]
واستبانتْ غايتى من آيةٍ فى (الذارياتِ)[3]

(١) يشير إلى الآيات من (٢٠ ـ ٢٢) من سورة المرسلات.
(٢) يشير إلى الآيات من (٣٧ ـ ٤١) من سورة النازعات.
(٣) يشير إلى الآية: ٥٦ من سورة الذاريات.

أنـــا روح أنـــا نـــور لا حصـــاةٌ فـــى فـــلاةِ
أنـا شمـس ليـس تُطْـفَا بهـــبوب العـاصـــفاتِ
ذاك ســـرى يـا زمـانـى فَلْيَـــمُتْ غَيْـظاً عِـدَاتـــى

إنه الارتقاء بالإنسان فى المعتقد أن يكرم بعبادة الله وحده، ويرفع عن أى مخلوق غيره، فما أحط أولئك الذين يعبدون غير الله، وإنه لمن المزرى بالإنسان أن يركع ويسجد لمخلوق مثله، بل لمخلوق أحط منه، لقد رفع الإسلام من قيمة الإنسان باستعباده لله الواحد الأحد.

لقد أُذلَّ الانسان عندما استعبدوه لمخلوقات الله الدنيا، وهو العزيز المكرم عند ربه: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[1].

وأُذل كذلك عندما زعموا له أن ربه ومعبوده مكون من ثلاثة (أقانيم) لا يدرى لأى الثلاثة يكون مستعبدا!! وكذا عندما جعلوا له إلاهه يلد ويولد وتجرى عليه أعراض البشر المخلوقين..

لقد مزقت هذه المعتقدات نفسيات البشر، وجعلتهم يلغون عقولهم ليؤمنوا بإلاه يُقتل ويُصلب، وله دم يُشرب، ولحم يؤكل إلى يوم القيامة!! هؤلاء لسان حالهم يقول: إنهم معذبون ولا يكادون يصدقون بهذه الآلهة الكثيرة أو المثلثة، وهذا أمر مطرد عندهم. تذكر إحدى النصرانيات قصتها مع النصرانية، وتلخصها فى إيجاز قائلة:

(... كانت أسرتى تحرص على ذهابى للكنيسة، ولم يكن فى نفسى قرب من المسيحية... لكننى أعترف أنه لم يكن يعنينى ما يريده القساوسة أو

(١) سورة الإسراء ـ الآية (٧٠).

تحكيه الأناجيل؛ لأنه كان دينا غامضا بالنسبة لى، ولم يكن هناك أمامى بديل لرفضه. . . .

وهكذا تتمزق النفس الإنسانية وتداخلها الشكوك بسبب العقائد المنحرفة أو الفاسدة الأصول؛ لأن قيم الإنسان الفطرية ترفض ذلك.

ولكنها تقول عن الإسلام:

(قرأت فى العقيدة (الإسلامية) وسيرة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وحياته، ولأول مرة أحس بسعادة غامرة وأعيش فى عالم لا يعرفه إلا من يتذوق حلاوة الإيمان)[1].

هذه هى خلاصة هدف علم نفس الدعوة، فى الارتقاء بالإنسان؛ ليكون إنسانا، وليكون مؤهلا للمهمة التى رشحه الله لها، وليكون مكرما ويعيش إنسانا سويا لا مبعثر النفس مضطرب الشخصية.

أما الغاية التى يسعى إليها هذا العلم فهى: أن ينال الإنسان ـ بعد أن يحقق الهدف ـ رضا الله ليفوز بالجنة.

(١) انظر: جريدة (المسلمون) العدد (٣٨٦) بتاريخ ٢٥ من ذى الحجة (١٤١٢ هـ، الموافق ١٩٩٢/٦/٢٦ م).

المبحث الثالث
الفرق بين علم نفس الدعوة
وعلم النفس العام

فى هذا المبحث نريد أن ندرس العلاقة بين العلمين، ومدى تلازمهما أو اختلافهما، وهل هناك فروق جوهرية بينهما، أم أن الخطوط رفيعة، وسوف نعتمد فى المقارنة على الخطوط العريضة والأسس العامة التى يستند إليها كل علم منهما، وسوف يكون ذلك باختصار وفى شكل نقاط رئيسة لا نكثر فيها من التفريعات والمتاهات، وبعد أن ندرس عددا من الأسس والمصادر لكليهما سوف نحدد الفروق بينهما على ضوء نتائج ومعطيات البحث والأدلة، فنقول:

أ ـ كل علم تُعرف متانته ورسوخه: من الأصول التى يستند إليها، ومن المصادر التى تمده بالمعرفة التى يستند إليها ويقيم برهانه على أساسها، وبالتالى يحكم على النتائج من خلال تلك المعطيات، وبالنسبة لعلم نفس الدعوة من حيث الاستعداد المصدرى نجده يعتمد على القرآن الكريم والسنة النبوية، وذلك فيما يتعلق بتحليله للنفس البشرية وسلوكياتها، وهذا المصدر المكون من القرآن الكريم والسنة، هو أقوى المصادر دلالة على دواخل النفس ومعرفة مكنوناتها وأسرارها: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[1].

---

(1) سورة الملك ـ الآية (١٤).

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ... ﴾[1].

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾[2].

فعلم نفس الدعوة تقوم أصوله وكلياته على القرآن والسنة فى الأساس، ولا تؤثر فيه الدراسات العضوية (الفسيولوچية) التى يجريها علماء علم النفس العام فى الوقت الحاضر، حيث إنها ما تزال نظريات فى عمومها، وأما ما يتصل منها بعلم الأعضاء والتشريح فإنه يدخل فى علمٍ غير علم النفس، ولا يبحث فى النفس البشرية، بل يبحث فى عوارض الجسم وأمراضه العضوية، غير أننا نزيد الأمر وضوحا، بأن النفس تؤثر كثيرا على الأعضاء حيث إن المعاناة النفسية تسبب أمراضا عضوية جسدية، وبالتالى يغدو مَرَدُّ الأمر كله أو معظمه إلى النفس، التى لا يعلم خصائصها بالتفصيل الدقيق إلا خالقها، الذى حدثنا عنها فى القرآن الكريم وفيما أوحى به إلى نبيه من السنة.

أما علم النفس العام فإنه يقيم دراساته على النفس عن طريق الملاحظة وإيراد الأسئلة وإجراء التجربة النظرية بوضع أسئلة معينة على عدد من الناس فى مختلف الأعمار، وغالبا ما يكون ذلك فى بلد الشخص والطبيب المعالج، وربما كان فى عدد من البلدان، ثم إجراء بعض التجارب المخبرية العضوية، مثل الغدد وبعض الأجهزة لمعرفة مدى تأثيرها على النفس والسلوك، وكما ذكرنا قبل قليل، فإن أثر مثل هذه الدراسات متبادل بين النفس والعضو، حيث يؤثر كل واحد فى الآخر، فلا يعرف بالضبط أيهما كان أثره أسبق لصاحبه، فوجد أن اضطراب كثير من الغدد يحصل فى حالات اضطراب السلوك والحالة النفسية غير المستقرة، وكما تؤثر الغدد فى بناء الشخصية، فإن الشخصية تؤثر فى وظائف الغدد تأثيرا دائما مزمنا،

(١) سورة الإسراء ـ من الآية (٢٥).
(٢) سورة الشمس ـ الآيتان (٧ و ٨).

حيث اتضح أن التوتر والانفعال المستمر يؤدى إلى تضخم الغدة الدرقية وزيادة إفرازها، وأن الهبوط النفسى المتواصل يؤدى إلى فتور فى نشاط هذه الغدة وقلة إفرازها[1].

كما يستمد علم النفس العام دراساته حول النفس الإنسانية من البيئة المحيطة بالشخصية المراد دراستها، وهذا فى حد ذاته أمر طيب يجب أن يأخذه الباحث والدارس للأشخاص فى حسبانه، لما للبيئة من تأثير، ولكن الاعتماد عليه من أجل إعطاء نتيجة قاطعة حسب مواصفات البحث العلمى، أمر فى غاية الخطورة والتضليل، إذ أن تأثير البيئة على النفس يمكن أن يتغير ويتعدل فى كل وقت ولحظة، كما أنه يختلف من وقت لآخر، حسب المؤثرات الواقعة على الشخص، وحسب قوة المؤثر نفسه، هذا مع قابلية الشخص للتأثير، فالتأثير البيئى لا نعترض عليه، إذ أنّ علم نفس الدعوة يأخذ به أيضا، ولكن بعد الدراسة القرآنية والسنية عن النفس، بل وفى ضوئها وعلى منهجها.

ولكن علم النفس العام يستمد من البيئة استمدادا مصدريا، ويعول عليها تعويلا كاملا لتقويم السلوك النفسى البشرى...

ب ـ علم النفس العام يؤسس دراساته عن النفس من خلال السلوكية الخارجية والملاحظة الأولية العامة للظاهرة السلوكية للأفراد، وسير حياتهم المعيشية والاجتماعية على اختلاف المدارس النفسية فى ذلك، فمنها ما تركز على المؤثرات الاقتصادية مثل المدارس الشرقية الشيوعية التى تعول كثيرا على العوامل الاقتصادية والطبقية، فَتُقَوِّم السلوك النفسى على أساس الاقتصاد، من الفقر والغنى، ضاربة بالنواحى العقدية عرض الحائط، وهى ذات أثر كبير ودلالة قوية على النفس.

---

(١) انظر: أصول علم النفس، د/ أحمد عزت. ص ٤٢١.

أما المدارس الغربية المادية فهى أنواع فى ذلك: فمنها ما تركز على الدراسات الجنسية لتفسير العوامل النفسية، ومنها التى تعتمد المؤثرات الاجتماعية الأخرى المتعددة...

أما علم نفس الدعوة، فيركز على دراسة دواخل النفس وأسرارها الخفية التى لا يمكن أن تعرف إلا من خلال خالق النفس، حيث شرح أحوالها فى القرآن الكريم، وإن كان ذلك فى عموميات النفس الإنسانية كلها، ولكن الناظر فى القرآن يجده قد وضع أسسا منضبطة ورصينة لكل أنواع النفوس البشرية فى تنوع عام لا تخرج عنه نفس أى فرد من الناس.

حيث قسم القرآن النفوس الإنسانية إلى صفات عامة وأعطى لها مواصفات منتظمة يمكن لدارس النفس أن يسير عليها بكل ثقة ودقة، حسب ما أعطاه الله من علم، ووفق تلك المواصفات القرآنية المتقنة، كما أتقن الله، تعالى، الكون الآخر وجعله منضبطا يسير بنظام لا يتغير، مما أمكن الباحثين أن يدرسوه داسة منضبطة بآلاتهم: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾[1].

فمثلا، أعطى القرآن وصفا دقيقا لنفسية المنافقين لا يخطئها الدارس إن سار حسب الوصف القرآنى لها، واستعمل فى دراسته معطيات العلم الحديث لتعينه على ذلك ولتعطى نتائج طيبة مثل أجهزة الحاسوب (الكومبيوتر) فما عليه إلا أن يضع أوصاف المنافق ـ مثلا ـ داخله ثم يطلب منه إن كانت الشخصية التى أمامه تنطبق عليها تلك الأوصاف أم لا، وهنا يكون قد سار على المنهج القرآنى. وهذه جملة من صفاتهم التى يمكن أن تقوم الدراسة على أسسها:

١ ـ التردد والتهيب، فهم مترددون، هيابون، يقدمون رجلا ويؤخرون

(١) سورة النمل ـ من الآية (٨٨).

أخرى، فنفوسهم هيابة غير مقدامة: ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ... ﴾[1].

وهكذا يخبر الله بهم رسوله، وبالتالى عامة المسلمين بأنهم لا صدق لهم، ولا عهد لهم ولا ذمة لهم، وبالتالى لا يمكن تصديقهم، فهم لا يخرجون مع المسلمين لقتال ولا لمصلحة راجحة تهم المسلمين، ذلك لاستيلاء النفس الحيرى المترددة عليهم، وإن خرجوا فسيكون خروجهم لتثبيط الهمم والتخذيل، كما فعل عبدالله بن أُبَيٍّ بن سلول حين خرج مع المسلمين بجيشه ثم رجع به بعد أن تجاوز الجيش المدينة لتخذيل المسلمين وتوهين عزيمتهم، فوصفهم الله بقوله:

﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ... ﴾[2].

٢ ـ ومن لوازم أوصافهم، الخداع والمراوغة:

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[3].

فهم يخادعون حتى فى الإسلام والإيمان، ويزعمون أنهم على الإسلام

---

(١) سورة النساء ـ من الآية (١٤٣).

(٢) سورة التوبة ـ الآيات (٤٤ و ٤٥ و ٤٦ وصدر الآية: ٤٧).

(٣) سورة النساء ـ الآية (١٤٢).

والإيمان، ولكن يظهر ذلك فى سلوكهم وأعمالهم وتثاقلهم فى العبادات، حتى إن الصحابة قد درسوا تلك النفسيات وأصبحوا يعرفون المنافق من كثرة ما ذكر القرآن من صفاتهم، حتى كانوا يرون أن الذى يتأخر عن صلاتى العشاء الآخرة والفجر من المنافقين، وقالوا: كنا نرى أنه لا يتأخر عنهما إلا منافق بيِّنُ النفاق، (قال عبدالله: لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلا منافق قد عُلم نفاقه أو مريض، إن كان المريض ليمشى بين رجلين حتى تأتى الصلاة... الخ)[1]. ويقول الله، تعالى، فى نفاقهم الإيمانى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[2].

ويقول عنهم:

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾[3].

٣ ـ ومن صفاتهم الخوف والاضطراب، فهم دائما فى حذر وترقب لأن نفوسهم مريضة تتوقع الشر دائما ويخافون أن تأتى الحقيقة فتكشفهم وتظهر عوراتهم التى يخادعون بها، فإن الله يكشفها لرسوله، ويكشفها للمؤمنين بعد ذلك عن طريق دراسة أوصافهم فى القرآن:

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾[4].

(١) مسلم ـ كتاب المساجد، فضل صلاة الجماعة ـ شرح النووى ٥/١٥٦، ابن ماجه، ١/٢٥٤، المساجد.

(٢) سورة البقرة ـ الآيتان (٨ و ٩).

(٣) سورة البقرة ـ الآية (١٤).

(٤) سورة التوبة ـ الآية (٦٤).

٤ ـ ومن أبرز صفاتهم الملازمة لهم ملازمة ظلهم، ومن أخطرها صفة الكذب، فهم أبدا يكذبون ويصرون عليه، حتى يكاد الناس يصدقونهم، ولكن المؤمن بحاسته الإيمانية وفراسته يكشفهم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾[1]. ويؤكد الله كذبهم، منبها عليهم بقوله، تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[2].

٥ ـ ولما كان شأنهم ودأبهم الخداع والمراوغة، لم يكن لهم علم ولا فقه دقيق، ولكنها حيل وتلافيق يشغلون بها الناس، مما يطلونها به من طلاء براق يجذب الأنظار، كله خداع وليس وراءه من الحقيقة من شيء، وإن نجحوا ـ ولو لحين ـ لخداع أصحاب النظر السطحى أو أرباب الخبرة القليلة بالقرآن الكريم، أما فى واقع الأمر فإنك لن تجد عند المنافق من علم ولا فقه.

﴿... وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾[3].

﴿... وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[4].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[5].

ويبدو أن عدم استقرارهم النفسى شل فكرهم ومحق فقههم، فهم دائما مشغولون بحياكة المكائد وتدبير المصائد لغيرهم، وليس لهم وقت للتفكير والتدبر واستعمال العقل الذى هو مناط الفقه والدراية والعلم، ولا يطلبون تثبتا ولا برهانا؛ لأنهم لاهثون فى دوران مستمر لا تنقطع حلقاته.

(١) سورة الأحزاب ـ الآية (١٢).
(٢) سورة المنافقون ـ الآية (١).
(٣) سورة المنافقون ـ من الآية (٧).
(٤) سورة المنافقون ـ من الآية (٨).
(٥) سورة المنافقون ـ الآية (٣).

وهذا النوع من أمراض النفس لا يتوصل إليه علم النفس العام؛ لأنه ليس من شأن البشر معرفته بآلاتهم الحسية فقط، وهذا معنى قولنا السابق: إن علم نفس الدعوة يدرس دواخل النفس ليستدل بذلك على السلوك الخارجى، وهو من الفروق الرئيسة البينة بين العلمين.

جـ ـ يقوم علم النفس العام فى دراسته للنفس الإنسانية على تقسيم تلك الدراسات والأبحاث إلى وحدات وأجزاء، يدرس كل جزء على حدة، ثم تجمع تلك الدراسة المجزأة؛ ليُستَخلَص منها قانون تَسِير عليه دراسات النفس الإنسانية وسلوكها.

فلم تكن معظم مدارس علم النفس تدرس الإنسان باعتباره وحدة متكاملة، ولكنهم يدرسونه تحت تأثيرات مختلفة ومتفككة بعضها عن بعض، ثم يحاولون ربطها من بعد ذلك، أى من بعد دراسة كل جزء منفرداً وإخراج نتيجة دراسته، وهذا لا يعطى نتائج للكل.

ولهذا فقد صرخ بعضهم قائلا: (... إننا لا نفهم الإنسان ككل، إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة... إننا استطعنا أن نفهم جوانب فقط من أنفسنا... وواقع الأمر أن جهلنا مطبق، فأغلب الأسئلة التى يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب؛ لأن هناك مناطق غير محدودة فى دنيانا الباطنية مازالت غير معروفة... فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان غير كاف وأن معرفتنا بأنفسنا مازالت بدائية فى الغالب...

ثم يعرج على الحضارة المادية وما أنتجته فى مضمار الماديات وما لم تستطع به أن تنفع الإنسان النفع المطلوب؛ لقصور فهمها للإنسان، فيقول محللا ذلك تحليل الخبير بأدواء قومه:

... إن الحضارة العصرية تجد نفسها فى موقف صعب؛ لأنها لا تلائمنا، لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية، وشهوات الناس، وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم، وعلى الرغم من أنها أنشئت بجهودنا فإنها غير صالحة لحجمنا وشكلنا... وهؤلاء النظريون يبنون حضارتهم بالرغم من أنها رسمت لتحقيق خير الإنسان فإنها تلائم فقط صورة غير متكاملة أو مهوشة للإنسان.. (.. يجب أن يكون الإنسان مقياساً لكل شئ[1] لكن الواقع عكس ذلك، فهو غريب فى العالم الذى ابتدعه، إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه؛ لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته، ومن ثَمَّ فإن التقدم الهائل الذى أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التى عانت منها الإنسانية، إننا قوم تعساء؛ لأننا ننحط أخلاقيا وعقليا...)[2].

ولقد حرصت على نقل تلك الفقرات المطولة لفائدتها للقارئ؛ لأنها من خبير بأدواء قومه، وما هم عليه، والاعتراف سيد الأدلة، فلقد شهد بأن مدارس علم النفس لم تدرس الإنسان كوحدة وكيان متحد لا يمكن تجزئته.

إن المعرفة بالإنسان معرفة بدقائق معظم أو بعض الكائنات والعوالم الأخرى والجهل به جهل بها أو بمعظمها، وهذا ما أكده قبل حوالى سبعة قرون العالم الجليل ابن قَيِّم الجوزية حين قال:

(إنه ـ سبحانه ـ جمع ما فرقه فى العالم فى آدم، فهو العالَم الصغير، وفيه ما فى العالَم الكبير... إنه خلاصة الوجود وثمرته...)[3].

---

(١) يعنى أن الإنسان ينبغى أن يكون مقياسا للآلة المادية، وليست الآلة المادية هى التى تكون مقياسا للإنسان، تقيس شعوره وأحاسيسه ونفسياته.

(٢) الجمل التى بين الأقواس مأخوذة من: الإنسان ذلك المجهول ـ للدكتور ألكسيس كاريل، وهو عالم مثقف ومطلع على علوم كثيرة ومنوعة وعالم بارع، الكتاب من تعريب: شفيق أسعد فريد، نشر مكتبة المعارف ـ بيروت ـ لبنان.

(٣) انظر: الفوائد، لابن قيم الجوزية ص ٥٨، نشر المكتبة القيمة بالقاهرة.

وهناك خطأ آخر وقعت فيه تلك المدارس النفسية، وهو أنها لم تدرس (النفس الإنسانية قط، موصولة بالله خالقها ومحركها، ومودع ما فيها من طاقات، مع أنهم درسوها فى مجالات مختلفة، وليس من بينها جميعا تأثير الإرادة الإلهية فى حياة الإنسان.

(... فمرة يدرس الإنسان تحت التأثير الجغرافى والمناخى والبيئى والمادى، ومرة تحت التأثير الاجتماعى، ولكنه لم يدرس مرة واحدة متأثرا بقَدَرِ الله الذى يقرر مصير كل شىء، بما فى ذلك مصير الإنسان، ونشأ من ذلك خطأ فادح. فهذه المذاهب والنظريات كلها تغفل من حسابها توجه النفس البشرية توجها فطريا إلى خالقها، واستمدادها منه مكونات حياتها كلها، وقوانين حركتها، ومجالات تحركها، هذا الإغفال المتعمد يحدث تشويشا فى الصورة المرسومة للإنسان، فتارة يرسم كأنه يقوم فى هذا الكون وحده، وكأنه هو الإله، وتارة يرسم عبدا للآلهة المزعومة، آلهة الاقتصاد والاجتماع والمادة، وتارة يرسم كأنما المحرك له هو الأفعال المنعكسة، أو الجنس... أو الكيمياويات، أو الميكانيكا الجسمية...)[1].

أما علم نفس الدعوة، فإنه يدرس الإنسان فى كيان واحد لا يتجزأ ووحدة من أجزاء مترابطة يكمل بعضها بعضا فلا تستغنى النفس عن الأعضاء، ولا يستغنى الجسم عن أى جهاز من أجهزته، بل ولا جزىء صغير من خلية من خلاياه.

فالإنسان كيان واحد نفسه وروحه وجسده وعواطفه وانفعالاته وسكونه وسلوكه وهدفه وغايته، غضبه وفرحه، صحته وعافيته. لا يمكن أن يدرس فى أجزاء ثم تجمع، فهذا منهج لن يؤدى إلى معرفة النفس الإنسانية بحال،

(١) الجمل بين الأقواس مقتطفة من كتاب: دراسات فى النفس الإنسانية، ص ٢٥ ـ ٢٦، لمحمد قطب، طبع دار الشروق، ط ٦ (١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣).

هذا، ومع هذه الوحدة لابد أن نأخذ فى الحسبان المؤثرات الأخرى الخارجية مثل البيئة والطبيعة المحيطة والحالة الاقتصادية والاجتماعية، ولكن كلها فى ظلال الإنسان البشر الموحد الكيان، ثم الإنسان المخلوق لله تعالى، الذى يسير بقَدَره ويجرى عليه قضاؤه، وتدرس فيه الفطرة الإيمانية (الكامنة) وإن أخفتها المؤثرات الخارجية، فيجب أن تثار وتنبش، إن كان يراد معرفة كوامن النفوس ودواخلها... ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾[1].

د ـ من الفوارق البارزة بين علم النفس العام (الغربى والشيوعى) وعلم نفس الدعوة، أن الأول يدرس النفس الإنسانية ويحللها تحت وطأة المادة، أى ينظر للإنسان نظرة مادية، مركبة من عضويات مادية، ويرى أنه يجب أن تدرس النفس من خلال تلك الأعضاء والأجهزة المادية ـ كما أشرنا إلى أثر الغدد الصم على النفس ـ خاصة المدارس التى تأخذ بنظريات العلوم الحديثة (الفيسيولوجية والبيولوجية) التى تدرس وظائف الأعضاء.

وخير ما يمثل ذلك الاتجاه المدرسة السلوكية، خاصة بعد مجىء (واطسون) الذى حرص على التعامل مع النفس البشرية من الناحية المادية فقط، وكان يصر على القول بأن (علم النفس، كما يراه السلوكى، فرع موضوعى وتجريبى محض من فروع العلوم الطبيعية. ويبدو أن الوقت قد حان ليتخلص علم النفس من كل إشارة إلى الشعور ومن ملاحظة الحالات النفسية. إن من الممكن كتابة علم النفس دون الإشارة إلى (الشعور) و(الحالات النفسية و (فحوى الخبرة) و (الإرادة) و (التصور) وما إلى ذلك.

(١) سورة الأعراف ـ الآية (١٧٢)

إن من الممكن كتابته ضمن حدود (المثير والاستجابة) و (تكوين العادات) و(تكامل العادات) وما يشبه ذلك. . .)[1].

وهذا تصور خاطئ وقعت فيه مدارس علم النفس، حيث تصورت النفس الإنسانية تصورا ماديا ودرستها دراسة جسدية كما يدرسها علم وظائف الأعضاء (الفيسيولجى) وعلم الأحياء (البيولوجى).

ولا يمكن تفسير النفس الإنسانية فى حدود المثير، كما زعم واطسون، (إذ كيف نفسر (الحب) مثلا عن طريق المثيرات والاستجابات الشَّرطية المنعكسة؟ إن طبيعة السلوك المعقد لا تسمح بمثل هذه التجزئة الشديدة، فالتفاعل بين العوامل الجسمية والنفسية والاجتماعية والحضارية والروحية لإنتاج مركب السلوك الإنسانى لا ولن تكون ببساطة التفاعل بين (الهيدروجين والأكسجين والكربون) لإنتاج مركب سكر الجلوكوز، كما يحدث فى عملية التمثيل الضوئى عندما يستخدم النبات الطاقة الشمسية لإنتاج السكر من الماء وثانى أكسيد الكربون. . .

إذنْ فَلِكَىْ يكون علم النفس علما تجريبيا، كما يتصور السلوكيون، فقد أفرغ الإنسان من شعوره ومحتواه العقلى والفكرى المعقد كما أفرغوه من قبل من محتواه الروحى، وفى ذلك يقول العالم البريطانى المشهور (سيرل بيرت هازلا): إن علم النفس الحديث قد فقد روحه ثم فقد عقله ثم فقد شعوره)[2].

وقد دحضنا ذلك فيما نقلناه عن (ألكسيس كاريل)، فعامل الإنسان معاملة

---

(١) انظر: مدارس علم النفس ص ٩٢، د/ فاخر عاقل، نقلا عن كتاب واطسون: مدخل إلى علم النفس المقارن المنشور عام (١٩١٤).

(٢) التفكر، ص ١٨، د/ مالك بابكر بدوى ط ١ (١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م) دار الوفاء للطباعة والنشر القاهرة.

مادية وهم يدرسون نفسياته وسلوكياته، والسبب أنهم لم تُظهر لهم دراساتهم عن النفس ما كانوا يرومونه منها، ولم يقفوا للنفس على حقيقة (ملموسة)، والقوم ماديون حسيون، وهم عن المعنويات ومكنونات الأسرار بعيدون.

أما علم نفس الدعوة، فإنه نحا نَحْواً آخر، حيث إن منهجه يختلف فى أساسه عن المنهج المادىِ، فنظر فى الإنسان وتكوينه الحقيقى، فوجده ليس بالمادى الخالص، ولا بالروحانى الكامل، وإنما هو مزيج من ذلك كله، روح ومادة، فإذا صفا الإنسان وسمت روحه وتألقت نفسه، صارت ذات شفافية وروحانية سماوية ملائكية، وإذا انحط وخبتْ تلك الجذوة فيه، مال وركن إلى الترابية الطينية، فذبل وهمد...

وإذا تشابك فيه الأمران وتلاقح العنصران المكونان له، غدا إنسانا بدمه وعصبه ولحمه وروحه بَيْنَ بَيْن...

فهو يصفو ويعكر، ويغضب ويرضى، ويحلم ويجهل، ويغفل ويستيقظ، يذنب ثم يئوب فيرجع ويتوب ويتألق... وهكذا ـ دواليك ـ هو الإنسان المزدوج التكوين، المزدوج النفس المتباين الطبائع، المتنوع الغرائز..

وهكذا ينبغى أن يعامل وأن تدرس نفسياته وسلوكياته، هكذا أراد له بارئه، خَلَقه من تراب، ثم نفخ فيه من روحه، أسكنه الجنة، ثم أنزله منها إلى الأرض، إلى جزء أصله إلى نصفه؛ ليكون عليها، ثم يحاول الصعود إلى عالم الروحانيات إلى عالم السمو والرفعة.

والإنسان كما أنه ليس بمادة، كذلك هو ليس بملائكة روحانية مجبولة على شىء واحد: لا خطأ، ولا تخاصم، ولا توبة...

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[1].

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[2].

وهكذا يعالج علم نفس الدعوة الإنسان، وهكذا يتعامل معه فى الدعوة إلى الله، مذكرا إياه بأنه مخلوق لله يجب عليه أن يرجع إلى خالقه طوعا قبل أن يرجع إليه قَسْراً وقهراً، مذكرا إياه أن كل مخلوقات الله سواء، تأتى ربها وتعبده طوعا:

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[3].

تلك النظرة التوازنية للإنسان، بين النفخة الروحانية، وبين القبضة الطينية هى التى تعرِّف بالنفس الإنسانية، وتيسر السبيل إلى بعض معرفتها، أما التجزيئية والمادية وإبعادها عن بارئها، فذلك كله لا يصلح ليكون أداة من أدوات البحث عن مكنونات النفس البشرية، ولا عن الروح التى هى من

(١) سورة الحجر ـ الآية (٢٩).

(٢) سورة السجدة ـ الآيات (٧ ـ ٩).

(٣) سورة فصلت ـ الآيات (٩ ـ ١٢).

أسرار الخالق، ومن أمره، ولكن إن اتبعنا ذلك السبيل الناهج، سبيل القرآن فسوف نلتمس لها بعض المعرفة بعلمنا القليل الذى آتانا إياه ربنا ورب كل شىء.

علاقة علم النفس بالدعوة:

العلاقة بين الدعوة وعلم النفس أو الداعى والنفسانى، علاقة وشيجة ومتلازمة فى عمومها، وفى موضوعاتها وفى بعض اهتماماتها، بل فى بعض طرق العلاج والوسائل وإن اختلفا فى الأهداف والغايات أو قُلْ فى بعضها.

والدعوة وثيقة الصلة بعلم النفس فى كل فروعه، خاصة العملية منها، وتدخل فى كل تخصصاته جملة وتفصيلا...

فإذا كان من أهداف علم النفس فهم السلوك البشرى، فهذا ما يصبو إليه الداعى. فهو فى لهف لمعرفة سلوك المدعو، ولماذا فعل هذا؟ ولماذا لم يفعل غيره؟ وكيف فعله؟ وهل له مصلحة فى ذلك؟ وهل المصلحة عامة أم خاصة؟... ثم محاولة التنبؤ بما يؤدى إليه هذا السلوك الصادر من هذا الشخص، ما ضرره أو ما مصلحته...؟

والدعوة تسعى وتعمل على ضبط السلوك، بعد تعديله، والتحكم فيه، بتعهده ورعايته المستمرة للفرد والجماعة، على حد سواء، فى تعاقب مستمر من الدعاة المنتشرين، الثابتين فى نفس المنطقة منهم والمتجولين، وهذه الملاحقة لا تتوافر لعلم النفس؛ لأنه ليس من مهام رجاله متابعة الناس وملاحقتهم.

أما الداعية فهو مأمور دينيا بذلك، وهذا أفضل أنواع الفراسات التأصيلية، حيث يلزم أن يتابعها أصحابها حتى يستطيعوا معرفة السلوك وانحرافه ونجاح العلاج، ولتثبيت ما غرسوه، وتعهد الداء؛ لكيلا ينبت مرة أخرى بسبب مؤثرات البيئة.

ولما كان الداعية يهمه أمر الناس جميعا بكل فئاتهم وقطاعاتهم وبمختلف أعمارهم وأجناسهم وألوانهم، ذكوراً وإناثاً وبمختلف مهنهم وحرفهم وصناعاتهم، عوامهم ومتعلميهم...

لما كان الداعى يعتنى بذلك كله ويهمه فى الأساس ـ كان ارتباطه بكل فروع علم النفس، العام، وعلم النفس الفارق، الذى يدرس الفوارق بين الناس وطبقاتهم وتأثير ذلك فى سلوكهم ونفسياتهم، وعلم نفس الشواذ من البشر، ومعرفة سبب ذلك وما أثَّر فيه من عوامل، ثم البحث عن طرق العلاج، سواء أكان الشذوذ سلوكيا أو فكريا أو عقديا...

وكذا القول فى بقية فروع علم النفس، مثل علم النفس التجارى والصناعى والجنائى والحربى... كل تلك العلوم يحتاج الداعى إلى معرفتها، ففى الدراسة المتعلقة بالتجار، مثلا، يود الداعى أن يعرف ما يدفع التاجر للجشع والاحتكار ورفع الأسعار وإخفاء السلع، ثم نوعية البضاعة المعروضة للمستهلك، وما أثرها عليه، ثم يلى الدراسة والبحث والفحص عملية المتابعة للعلاج وإزالة ما يخالف الدين ويضر بالمجتمع من ذلك كله...

وكذا يقال بخصوص الصناعات، حيث يتجه الداعى لمعرفة دوافع الصناع لصنع الصناعات التى تضر بالإنسان، سواء من ناحية سميتها أو كونها أسلحة أو كيمياويات، وكذلك يعمل على توجيه الناس للمفيد من الصناعات والمهن، كل إنسان حسب استعداده ومواهبه وما يمكن أن يجيده من مهارات حسب تركيبه المهنى...

ولهذا نقول: إن العلاقة حميمة بين علم النفس والدعوة ومتلازمة، ولكن كل ذلك فيما لا يتعارض مع أسس الإسلام وأصوله وأهدافه وبعد إزالة

الشوائب والمخلفات التى علقت بعلم النفس من البيئة غير الإسلامية التى نبت فيها، وتنقيته تنقية كاملة وإلغاء كل ما لا يتناسب مع البيئة الإسلامية؛ حتى لا يضر بالمجتمع المسلم.